

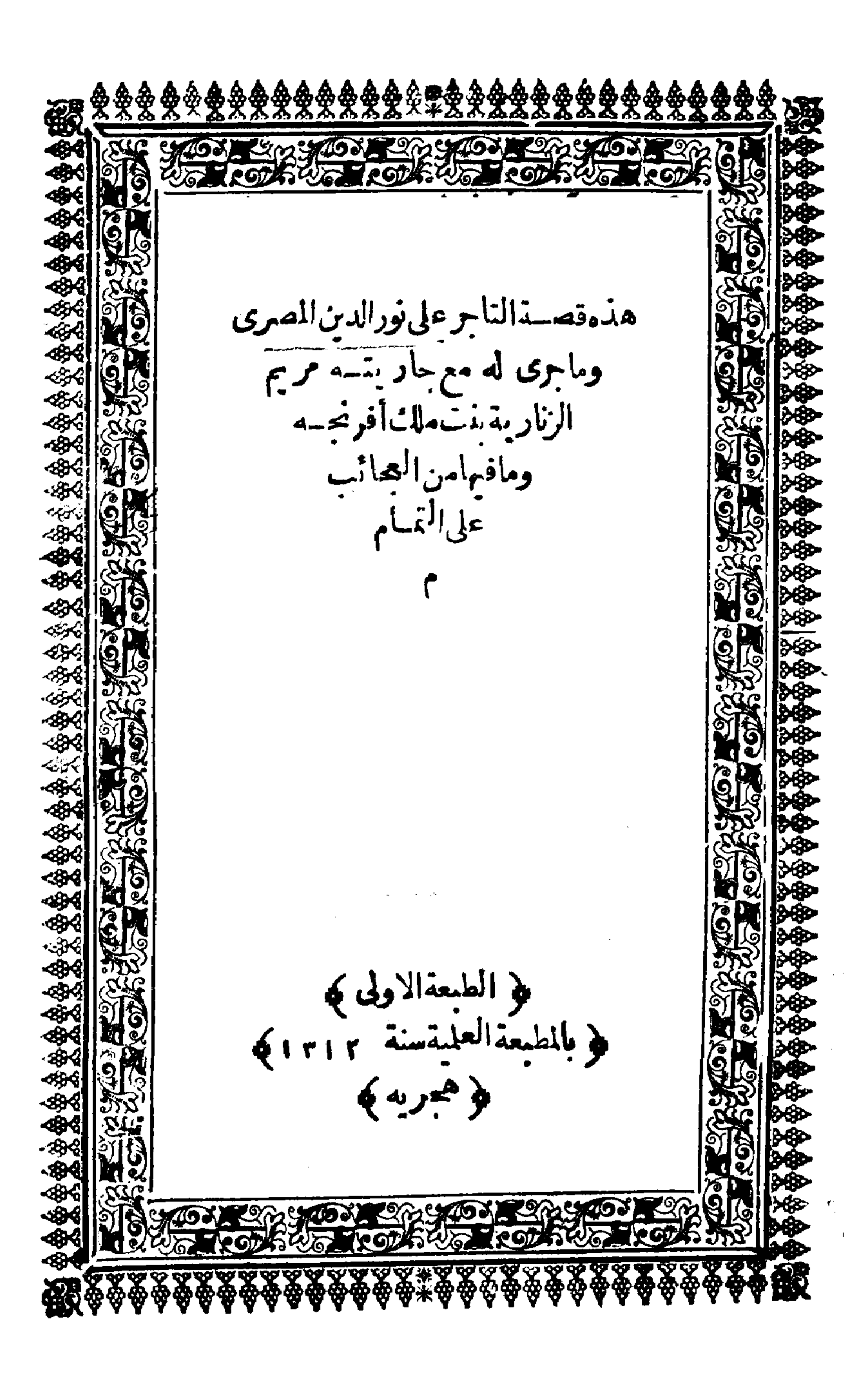
هذه قصة التاجر علي نور الدين المصري، وما جرى له مع جاريته مريم الزنارية بنت ملك أفرنجه وما فيها من العجائب على التمام

م

﴿ الطبعة الاولى ﴾

﴿ بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٢ ﴾

﴿ هجريه ﴾



هذه قصة التاجر على نور الدين المصرى

وماجرى له مع جاريته مريم

الزنارية بنت ملك أفرنجه

ومافيها من العجائب

على التمام

م

﴿ الطبعة الاولى ﴾

﴿ بالمطبعة العلمية سنة ١٣١٢ ﴾

﴿ هجريه ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومما يحكى﴾ انه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الأمناء الاحرار الأ أنه كان مولعا بالسفر الى جميع الأقطار ويحب السير فى البرارى والقفار والسهول والأوعار وجزائر البحار فى طلب الدرهم والدينار وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوارى وطالما ركب الأخطار وقاسى فى السفر ما يشيب الأطفال الصغار وكان أكثر التجار فى ذلك الزمان مالا وأحسنهم مقالا صاحب خيول وبغال وبخاتى وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقمشة عديمة المثال من شدود حمصية وثياب بعلبكية ومقاطع سندسية وثياب مروزية وتفاصيل هندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية ومماليك تركية وخدم حبشية وجوارى رومية وغلمان مصرية وكانت غرائر أحماله من الحرير لانه كان كثير الاموال بديع الجمال مائس الاعطاف شهى الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر عاين عشاقه * والحرب فيما بينهم ثائر
فقال ما للناس فى ضجة * قلت على عينك يا تاجر

﴿وقال آخر فى وصفه وأجاد وأتى فيه بالمراد﴾

وتاجر فى وصله زارنا * والقلب من ألحاظه حائر
فقال لى مالك فى حيرة * قلت على عينك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليا نور الدين كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال ظريف القد والاعتدال فجلس ذلك الصبى يوما من الايام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والاخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار فصار بينهم كأنه القمر بين النجوم بجبين أزهر وخد أحمر وعذار أخضر وجسم كأنه المرمر * كما قال الشاعر

ومليح قال صفني * أنت في الوصف رجيح
قلت قولا باختصار * كل ما فيك مليح

(وكما قال فيه بعض واصفيه)

له خال على صفحات خد * كنقطة عنبر في صحن مرمر
وألحاظ بأسياف تنادي * على عاصي الهوى الله أكبر

فعزمه أولاد التجار وقالوا له يا سيدي على نور الدين نشتهي في هذا اليوم اننا نتفرج نحن واياك في البستان الفلاني فقال لهم حتى أشاور والدي فاني لا أقدر أن أذهب الا باجازته فبينما هم في الكلام واذا بوالده تاج الدين قد أتى فنظر اليه ولده وقال يا أبت ان أولاد التجار قد عزموني لاجل أن أتفرج معهم في البستان الفلاني فهل تاذن لي في ذلك فقال نعم يا ولدي ثم انه أعطاه شيأ من المال وقال توجه معهم فركب أولاد التجار حميرا وبغالا وركب على نور الدين بغلة وسار معهم الى بستان فيه ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وهو مشيد الاركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه ايوان وباب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الالوان الاحمر كأنه مرجان والاسود كأنه أنوف السودان والابيض كانه بيض الحمام وفيه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوق والتفاح كل هذه الانواع مختلفة الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه الشاعر

عنب طعمه كطعم الشراب * حالك لونه كلون الغراب
بين أوراقه زها فتراه * كبنان النساء بين الخضاب

وكما قال فيه الشاعر أيضا

عناقيد حكت لما تدلت * على قضبانها جسمي نحولا
حكت عسلا وماء في اناء * وعادت بعد حصرمها شمولا

ثم انتهوا الى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسا في تلك العريشة كانه رضوان خازن الجنان ورأوا مكتوبا على باب العريشة هذه البيتين

سقى الله بستانا تدلت قطوفه * فمالت بها الاغصان من شدة الشرب
اذا رقصت أغصانه بيد الصبا * تنقطها الانواء باللؤلؤ الرطب *

ورأوا مكتوبا فى داخل العريشة هذين البيتين

ادخل بنا يا صاح فى روضة * تجلو عن القلب صدا همه
نسيمها يعثر فى ذيله * وزهرها يضحك فى كمه

وفى ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطيار من جميع الاصناف والالوان مثل فاخت وبلبل وكروان وقرى وحمام يغرد على الاغصان وأنهارها بها الماء الجارى وقد راقت تلك المجارى بازهار وأثمار ذات لذات كما قال فيه الشاعر

سرت النسيم على الغصون فشابهت * خودا، تعثر فى جميل ثيابها
وحكت جداولها السيوف اذا انتضت * أيدى الفوارس من غلاف قرابها

وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر مد على الغصون ولم يزل * أبدا يمثل شخصها فى قلبه
حتى اذا فطن النسيم سرى لها * من غيرة فأمالها من قربه

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكر القيروان كما قال فيه الشاعر

ورمان رقيق القشر يحكى * نهود البكر اذ برزت فحولا
اذا قشرته يبدو لدينا * من الياقوت ما بهر العقولا

(وكما قال فيه الشاعر)

ململمة تبدى لقاصد جوفها * يواقيت حمرا فى معاطف عبقرى
ورمانة شبهتها اذ رأيتها * بنهد العزارى أو بقبة مرمر
وفيها شفاء للمريض وصحة * وفيها حديث للنبى المطهر
وفيها يقول الله جل جلاله * مقالا بليغا فى الكتاب المسطر

وفى ذلك البستان تفاح سكرى ومسكى يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تفاحة جمعت لونين قد حكيا * خدى حبيب ومحبوب قد اجتمعا
لاحا على الغصن كالضدين من عجب * فذاك اسود والثانى به لمعا
تعانقا فبدا واش فراعهما * فاحمر ذا خجلا واصفر ذا ولعا

وفى ذلك البستان مشمش لوزى وكافورى وجيلانى وعنابى كما قال فيه الشاعر

والمشمش اللوزى يحكى عاشقا * جاء الحبيب له بخبر لبسه
وكفاه من صفة المتيم ما به * بصفر ظاهره و بكسر قلبه

(وقال فيه آخر وأجاد)

انظر الى المشمش فى زهره * حدائق يجلو سناها الحدق
كالانجم الزهر اذا مازهت * فالغصن يزهو بها فى الورق

وفى ذلك البستان برقوق وقراصيا وعناب تشفى السقيم من الاوصاب والتين فوق أغصانه ما بين أحمر وأخضر يحير العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر

كانما التين يبدوا منه أبيضه * مع أخضر بين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد * جن الظلام بهم باتوا على حذر

(وقال آخر وأجاد)

أهلا بتين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضمومة * قد جمعت بلا حلق

(وقال آخر وأجاد)

أنعم بتين طاب طعما واكتسى * حسنا وقارب منظرا من مخبر
يبدى تعاطيه اذا ماذقته * ريح الاقاح وطيب طعم السكر
وحكى اذا ما صب فى أطباقه * أكرا صنعن من الحرير الاخضر

(وما أحسن قول بعضهم)

قالوا وقد ألفت نفسى تفكهها * بغيرها كهة فى حبها هاموا
لاى شئ تحب التين قلت لهم * للتين قوم وللجميز أقوام

(وأحسن منه قول الآخر)

التين يعجبنى عن كل فاكهة * لما استوى والتوى فى غصنه الزاهى
كانه عابد والسحب ماطرة * فاضت مدامعه من خشية الله

وفى ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ماهو مختلف الالوان صنوان وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تهنيك كمثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفره
شبيهة بالبكر فى خدرها * والوجه منها مسبل السترة

وفى ذلك البستان من الخوخ السلطانى ماهو مختلف الالوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر

كانما الخوخ فى روضة * وقد بدا خده العندمى
بنادق من ذهب أصفر * قد خضبت وجهها بالدم

وفى ذلك البستان من اللوز الاخضر ماهو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبه من داخل ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسد رطب * مخالفة الاشكال من صنعة الرب
تريه الردى فى ليله ونهاره * وان يكن المسجون فيها بلا ذنب

(وقال آخر وأجاد)

أماترى اللوز حين تظهره * من الاوانين كف مقتطف
وقشره قد حلى القلوب لنا * كانه الدر داخل الصدف

(وأحسن منه قول الآخر)

ياحسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد * كأنما زهوره
نبت عذار الارمد * وقد غدت قلوبه * مزدوجا مع مفرد
كانها لآلئ * تصان فى زبرجد

(وقال آخر وأجاد)

ما أبصرت عيناى مثل اللوز ذا * فى حسنه لما بدت أنواره
الرأس منه باشتعال شائب * حين انتشا واخضر منه عذاره

وفى ذلك البستان النبق مختلف الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض واصفيه هذا الشعر

انظر الى النبق فى الاغصان منتظما * كشمش مجب يزهو على القضب
كان صفرته للناظرين غدت * تحكى جلاجل قد صيغت من الذهب

(وقال آخر وأجاد)

وسدرة كل يوم * من حسنها فى فنون
كانما النبق فيها * وقد بدا للعيون

جلاجل من نضار * قد علقت فى غصون

وفى ذلك البستان النارنج كأنه صولجان كما قال فيه الشاعر الولهان

وحمراء مثل الكف تزهو بحسنها * فظاهرها نار و باطنها ثلج

ومن عجب ثلج مع النار لم يذب * ومن عجب نار وليس لها وهج

(وقال بعضهم وأجاد)

وأشجار نارنج كان ثمارها * اذا ما بدت للناظر المتفرس

خدود نساء قد تبرجن زينة * بأيام عيد فى غلائل سندس

(وقال آخر وأجاد)

كان ربا النارنج اذهبت الصبا * وأضحت به الاغصان وهى تميد

خدود عليها بهجة الحسن أقبلت * عليها باوقات السلام خدود

(وقال آخر وأجاد)

وشادن قلت له صف لنا * بستاننا هذا ونارنجنا

فقال لى بستانكم طلعتى * ومن جنى النارنج وردى جنى

وفى ذلك البستان الاترج لونه كلون التبر وقد حط عن أعلى مكان وتدلى فى الاغصان فالت به وكأنه سبائك العقيان وقد قال فيه الشاعر

أما ترى أيكة الاترج مثمرة * يخشى عليها اذا مالت من العطب

كأنها عند ما مر النسيم بها * غصن تحمل قضبانا من الذهب

وفى ذلك البستان الكباد متدليا فى أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد

وكبادة بين الرياض نظرتها * على غصن رطب كقامة أغيد

اذا ميلتها الريح مالت كأكرة * بدت ذهبا فى صولجان زبرجد

وفى ذلك البستان الليمون ذكى الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرته زينة مجانيه وريحه يزهو لجانيه كما قال فيه بعض واصفيه

أما ترى الليمون لما بدا * يأخذ أشراقه بالعيان

كأنه بيض دجاج وقد * لطخته الخمس بالزعفران

وفي ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضروات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفل والسنبل العنبري والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه اذا دخل العليل خرج منه كالأسد الغضبان لا يقدر على وصفه اللسان لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان كيف لا واسم بوابه رضوان لكن بين المقامين شتان (فلما) تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان من لواوينه وأجلسوا نور الدين في وسط الليوان على نطع من الاديم المزركش متكئا على مخدة محشوة بريش النعام وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة من ريش النعام مكتوب عليها هذان البيتان

ومروحة معطرة النسيم * تذكر طيب أوقات النعيم
وتهدي طيبها في كل وقت * الى وجه الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب وجلسوا يتحدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم وكل منهم يتأمل في نور الدين وينظر الى حسن صورته وبعد ان اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أواني من الصيني والبلور لأن بعض اولاد التجار كان أوصى أهل بيته بها قبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة مما درج وطار وسبح في البحار كالقطا والسمان وافراخ الحمام وشياه الضان وأطف السمك فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من الاكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب وقدموا الى نور الدين منديلا مطرزا بالذهب الاحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة وشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث واذا بخولي البستان ذهب وجاء بسلة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا سادتنا في المشموم فقال بعض أولاد التجار لا بأس به خصوصا الورد فانه لا يرد فقال البستاني نعم ولكن عادتنا اننا لا نعطي الورد الا بالمنادمة فمن أراد أخذه فليأت بشيء من الشعر يناسب المقام وكان أولاد التجار عشرة أشخاص فقال واحد منهم نعم أعطني وأنا

انشدك شيأ من الشعر يناسب المقام فناوله حزمة من الورد فاخذها وانشد هذه الابيات

للورد عندي محل * لانه لا يمل
كل الرياحين جند * وهو الامير الاجل
ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ذلوا

ثم ناول الثاني حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

دونك ياسيدي وردة * يذكرك المسك أنفاسها
كغادة أبصرها عاشق * غطت بأكمامها رأسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

ورد نفيس تسر القلب رؤيته * تحكي روائحه ماطاب من ند
قد ضمه الغصن في أوراقه طربا * كقبلة بفم من غير ما صد

ثم ناول الرابع حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

أما ترى دوحة الورد التي ظهرت * لها بدائع قد ركبن في قضب
كانهن يواقيت يطوف بها * زبرجد قد حوى شذرا من الذهب

ثم ناول الخامس حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

قضب الزبرجد قد حملن واغما * أثمارهن سبائك العقيان
وكان وقع القطر من أوراقه * دمع بكته فواتر الاجفان

ثم ناول السادس حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

ياوردة لبديع الحسن قد جمعت * وأودع الله فيها لطف أسرار
كانها خد محبوب ونقطه * لدى التواصل مشتاق بدينار

ثم ناول السابع حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

قلت للورد ما لشوكك يؤذي * كل من مسه سريع الجراح
قال لي معشر الرياحين جندي * أنا سلطانها وشوكي سلاحي

ثم ناول الثامن حزمة ورد فاخذها وانشد هذين البيتين

رعى الله وردا غدا أصفرا * بهيا نضيرا يحاكي النضار
وحسن غصون به أثمرت * وجاءت منه شموسا صغار

ثم ناول التاسع حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

شجرات ورد أصفر جذبت * فى قلب كل متيم طربا
عجبا لها من دوحة سقيت * ماء اللجين فاثمرت ذهبا

ثم ناول العاشر حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

ألم تر أن جند الورد يزهو * بصفر من مطالعه وحمر
وقد شبهته والشوك فيه * نصال زمرد فى ترس تبر

فلما استقر الورد فى أيديهم احضر البستانى سفرة المدام ووضع بينهم صينيه مزركشة بالذهب الاحمر وأنشد يقول

هتف الفجر بالسنا واسق خمرا * عانسا تجعل الحليم سفيها
لست أدرى من لطفها وصفاها * أبكاس ترى أم الكاس فيها

ثم ان خولى البستان ملأ وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نور الدين ابن التاجر تاج الدين فملأ خولى البستان كاسا وناوله اياه فقال له نور الدين انت تعرف أن هذا شئ لا أعرفه ولا شربته قط لان فيه اثما كبيرا وقد حرم فى كتاب الرب القديم فقال خولى البستان ياسيدى نور الدين ان كنت ما تركت شربه الا من اجل الاثم فان الله سبحانه وتعالى كريم حليم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ورحمته وسعت كل شئ ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كيف شئت فان الله ذو كرم * وما عليك اذا أذنبت من باس
الا اثنتين فلا تقربهما أبدا * الشرك بالله والاضرار للناس

ثم قال واحد من أولاد التجار بحياتى عليك ياسيدى نور الدين أن تشرب هذا القدح وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق وآخر وقف بين يديه على أقدامه فاستحى نور الدين وأخذ القدح من خولى البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مر فقال له الشاب خولى البستان ياسيدى على نور الدين لولا أنه مر ما كانت فيه هذه المنافع ألم تعلم ان كل حلو اذا اكل على سبيل التداوى يجده الآكل مرا وان هذه الخمرة منافعها كثيرة فمن جملة منافعها انها تهضم الطعام وتصرف الهم والغم وتزيل الرياح وتروق الدم وتصفى اللون وتنعش البدن وتشجع الجبان

وتقوى همة الرجل على الجماع ولو أنا ذكرنا منافعها كلها لطال علينا شرح ذلك وقال بعض الشعراء

شربنا وعفو الله من كل جانب * وداويت أسقامي برتشف الكاس
وما غرني فيها وأعرف اثمها * سوى قوله فيهما منافع للناس

ثم ان خولي البستان نهض قائما على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعا من مخادع ذلك الايوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها لنور الدين فى القدح وقال له ياسيدى ان كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا فعند ذلك أخذ على نور الدين القدح وشربه ثم ملأ الكاس واحد من أولاد التجار وقال ياسيدى على نور الدين أنا عبدك وقام آخر وقال أنا خادمك وقام آخر وقال من أجل خاطرى وقام آخر وقال بالله عليك ياسيدى على نور الدين اجبر بخاطرى ولم يزل أولاد التجار العشرة بنور الدين الى أن سقوه العشرة أقداح كل واحد قدحا وكان باطن نور الدين بكرا عمره ما شرب خمرا قط الا فى تلك الساعة فدار الخمر فى دماغه وقوى عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه وقال ياجماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح الا أنه يحتاج الى سماع طيب فان الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده كما قال الشاعر

أدرها بالكبير وبالصغير * وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فانى * رأيت الخيل تشرب بالصفير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية * كأنها ألية طرية * أو فضة نقية * أو دينار فى صينية * أو غزال فى برية * بوجه يخجل الشمس المضيه * وعيون بابلية * وحواجب كأنها قسى محنيه * وخدود وردية * وأسنان لؤلؤية * ومراشف سكرية * وعيون مرخية * ونهود عاجية * وبطن خماصية * وأعكان مطوية * وأرداف كأنها مخدات محشية * وفخذين كالجداول الشامية * وبينهما شئ كأنه صرة فى بقجة مطوية * كما قيل فيها

ولو أنها للمشركين تعرضت * رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا

ولو أنها فى الغرب لاحت لراهب * تخلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تفلت فى البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا

(وكما قال آخر)

أبهى من البدر كحلاء العيون بدت * كأنما قدها كف آساد
أرخت عليها الليالى من ذوائبها * بيتا من الشعر لم يشدد باوتاد
من ورد وجنتها النيران ما اتقدت * الا بافئدة ذابت وأكباد
فلو رآها حسان العصر قمن لها * على الرؤس وقلن الفضل للبادى

(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ثلاثة منعتها عن زيارتنا * خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلى وما * حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره * والحلى تنزعه ما حيلة العرق

وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر * فى ليلة أربعة عشر * وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر * فوق جبين أزهر * تدهش العقول * وتحير أرباب المعقول * وهى فى غاية الحسن والجمال * ورشاقة القد والاعتدال * كأنها المرادة بقول الشاعر

أقبلت فى غلالة زرقاء * لاذ وردية كلون السماء
فتحققت فى الغلالة منها * قمر الصيف فى ليالى الشتاء

(وما أحسن قول الآخر وأجوده)

جاءت مبرقعة فقلت لها اسفرى * عن وجهك القمر المنير الازهر
قالت اخاف العار قلت لها اقصرى * بحوادث الايام لا تحيرى
رفعت نقاب الحسن عن وجناتها * فتساقط البلور فوق الجوهر
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيمتى فى المحشر
ونكون أول عاشقين تخاصما * يوم القيامة عند رب أكبر
وأقول طول فى الحساب وقوفنا * حتى يطول الى الحبيبة منظرى

ثم ان الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية اعلمى ياسيدة الملاح * وكل كوكب لاح * أننا ما قصدنا بحضورك فى هذا المكان الآن تنادمى هذا الشاب المليح

سيدى على نور الدين وانه لم يات محلنا هذا الا فى هذا اليوم فقالت له الصبية ليتك كنت أخبرتنى لاجل أن أجيء بالذى كان معى فقال لها يا سيدتى أنا أروح وأجيء به اليك فقالت له الصبية افعل ما بدا لك فقال لها اعطنى أمارة فاعطته منديلا فعند ذلك خرج سريعا وغاب ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشكابين من الذهب فاخذته الصبية منه وحلته ونفضته فنزل منه ثنتان وثلاثون قطعة خشب ثم ركبت الخشب فى بعضه على صورة ذكر فى أنثى وأنثى فى ذكر وكشفت عن معصمها واقامته فصار عودا محكوكا مجرودا صنعة الهنود ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناء الوالدة على ولدها وزغزغته بانامل يدها فعند ذلك أن العود ورن ولاما كنه القديمة قد حن * وتذكر المياه التى قد سقته والارض التى نبت منها وتربى فيها وتذكر النجارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التى حملته فصرخ وصاح وعدد وناح وكانها سالته عن ذلك كله فاجابها بلسان الحال منشدا هذه الابيات

لقد كنت عودا للبلابل منزلا * أميل بها وجدا وفرعى أخضر
ينوحون من فوقى فعلمت نوحهم * ومن أجل ذلك النوح سرى مجهر
رمانى بلا ذنب على الارض قاطعى * وصيرنى عودا نحيلا كما ترووا
ولكن ضربى بالانامل مخبر * بانى قتيل فى الانام مصبر
فمن أجل هذا صار كل منادم * اذا ما رأى نوحى يهيم ويسكر
وقد حننى المولى على قلوبهم * وقد صرت فى أعلى الصدور أصدر
تعانق قدى كل من فاق حسنها * وكل غزال ناعس الطرف أحور
فلا فرق الله المهيمن بيننا * ولا عاش محبوب يصد ويهجر

ثم سكتت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت ذلك العود فى حجرها * وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها * وضربت عليه طرقا عديدة ثم عادت الى طريقتها الاولى وأنشدت هذه الابيات

لو أنهم جنحوا للصب أو زاروا * لحط عنه من الاشواق أوزار
وعندليب على غصن يشاجره * كأنه عاشق شطت به الدار

قم وانتبه فليالي الوصل مقمرة * كأنها باجتماع الشمل أسحار
واليوم في غفلة عنا حواسدنا * وقد دعتنا الى اللذات أوتار
أما ترى أربعا للهو قد جمعت * آس وورد ومنثور ونوار
واليوم قد جمعت للحظ أربعة * صب وخل ومشروب ودينار
فاظفر بحظك في الدنيا فلذتها * تفنى وتبقى روايات وأخبار

فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الابيات نظر اليها بعين المحبة حتى كاد لا يملك نفسه من شدة الميل اليها وهي الاخرى كذلك لانها نظرت الى الجماعة الحاضرين من أولاد التجار كلهم والى نور الدين فرأته بينهم كالقمر بين النجوم لانه كان رخيم اللفظ والدلال كامل القد والاعتدال والبهاء والجمال ألطف من النسيم وأرق من من التسنيم ثم أنشدت هذه الابيات

قسما بوجنته وباسم ثغره * وبأسهم قد راشها من سحره
وبلين معطفه ونبل لحاظه * وبياض غرته وأسود شعره
وبحاجب حجب الكرى عن ناظري * وسطا علي بنهيه وبأمره
وعقارب قد أرسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهجره
وبورد خديه وآس عذاره * وعقيق مبسمه ولؤلؤ ثغره
وبغصن قامته الذي هو مثمر * رمانه يزهو جناه بصدره
وبردفه المرتج في حركاته * وسكونه وبرقة في خصره
وحرير ملمسه وخفة ذاته * وبما حواه من الجمال بأسره
ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروي طيبها عن نشره
وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال قلامة من ظفره

فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها أعجبه نظامها وكان قد مال من السكر فجعل يمدحها ويقول

عوادة مالت بنا * في نشوة المتنبذ قالت لنا أوتارها * أنطقنا الله الذي

فلما تكلم نور الدين بهذا الكلام * وأنشد هذا الشعر والنظام * نظرت له تلك الصبية بعين المحبة وزادت فيه عشقا وغراما وقد صارت متعجبة من حسنه وجماله

ورشاقة قده واعتداله فلم تملك نفسها بل احتضنت العود ثانيا وأنشدت هذه الابيات

يعاتبني على نظرى اليه * ويهجرنى وروحى فى يديه
ويبعدنى ويعلم ما بقلبى * كأن الله قد أوحى اليه
كتبت مثاله فى وسط كفى * وقلت لناظرى عول عليه
فلا عينى ترى عنه بديلا * ولا قلبى يصبرنى لديه
فيا قلبى نزعتك من فؤادى * لانك بعض حسادى عليه
اذا ما قلت يا قلبى تسلى * فقلبى لم يمل الا اليه

فلما أنشدت الصبية تلك الابيات تعجب نور الدين من حسن شعرها وبلاغة كلامها وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد والهيام ولم يقدر أن يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال اليها وضمها الى صدره ضمة العاشق الولهان فانطبقت عليه وصارت بكليتها لديه وقبلته بين عينيه وقبل هو فاها بعد ضم القوام ولعب معها فى التقبيل كزق الحمام فالتفتت له وفعلت معه مثل مافعل معها فهام الحاضرون وقاموا على أقدامهم فاستحى نور الدين ورفع يده عنها ثم انها أخذت عودها وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت الى الطريقة الاولى وأنشدت هذه الابيات

قمر يسل من الجفون اذا انثنى * عضبا ويهزأ بالغزال اذا رنا
ملك محاسنه البديعة جنده * ولدا الطعان قوامه يحكى القنا
لوأن رقة خصره فى قلبه * ماجار قط على المحب ولاجنى
يا قلبه القاسى ورقة خصره * هلا نقلت الى هنا من ههنا
يا عاذلى فى حبه كن عاذرى * فلك البقاء بحسنه ولى الفنا

فلما سمع نور الدين حسن كلامها وبديع نظامها مال اليها من الطرب ولم يملك عقله من شدة العجب ثم انه أنشد هذه الابيات

لقد خلتها شمس الضحى فتخيلت * لكن لهيب الحر منها بمهجتى
وماذا عليها لو أشارت فسلمت * علينا باطراف البنان وأومت
رأى وجهها اللاحى فقال وتاه فى * محاسنها اللاتى عن الحسن جلت

أهذى التى قدهمت شوقا بحبها * وانك معذور فقلت هى التى
رمتنى بسهم اللحظ عمدا واورثت * نحالى وذلى وانكسارى وغربتى
فاصبحت مسلوب الفؤاد متيما * أنوح وأبكى طول يومى وليلتى
فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها
وضربت عليه باحسن حركاتها واعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الابيات
وحياة وجهك ياحياة الانفس * لاحلت عنك يئست أم لم تيئس
فلئن جفوت فان طيفك واصل * أوغبت عن عينى فذكرك مؤنسى
يامؤحشا طرفى وتعلم اننى * أبدا بغير هواك لم استأنس
خداك من ورد وريقك خمرة * هلا سمحت بها بهذا المجلس
فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غاية الطرب وتعجب منها غاية
العجب ثم أجابها على شعرها بهذه الابيات
ما أسفرت عن محيا الشمس فى الغسق * الا تحجب بدر التم فى الافق
ولا بدت لعيون الصبح طرتها * الا وعوذت ذاك الفرق بالفلق
خذ عن مجارى دموعى فى تسلسلها * واروحديث الهوى من أقرب الطرق
ورب رامية بالنبل قلت لها * مهلا بنبلك ان القلب فى فرق
ان كان دمعى لبحر النيل نسبته * فان ودك منسوب الى الملق
قالت فهات جميع المال قلت خذى * قالت ونومك أيضا قلت من حدقى
فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طار عقلها واندهش لبها
وقد احتوى على مجامع قلبها فضمته الى صدرها وصارت تقبله تقبيلا كزق الحمام
وكذلك هو الآخر قابلها بتقبيل متلاحق ولكن الفضل للسابق وبعد أن
فرغت من تلك التقبيلات أخذت العود وانشدت هذه الابيات
ويلاه ويلى من ملامة عاذلى * أشكوه أم أشكو اليه تململى
ياهاجرى ما كنت أحسب أننى * ألقى الاهانة فى هواك وأنت لى
عنفت أرباب الصبابة بالجوى * وأبحت فيك لعاذليك تذللى
بالامس كنت ألوم أرباب الهوى * واليوم أعذر كل صب مبتلى

وان أعترتني من فراقك شدة * أصبحت أدعو الله باسمك ياعلى

فلما فرغت تلك الصبية من شعرها أنشدت أيضا هذين البيتين

قالت لى العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ورحيق فيه السلسل

ندعوا اله العالمين يجيبنا * ويقول فيه الكل متنا ياعلى

فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظام تعجب من فصاحة لسانها وشكرها على ظرافة افتتانها وأثنى عليها غاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء نور الدين عليها قامت من وقتها وساعتها على قدميها وقلعت جميع ماكان عليها من ثياب ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست على ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلى شامتي خديه ووهبت له جميع ذلك وقالت له اعلم يا حبيب قلبي ان الهدية على مقدار هاديها فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها فى فمها وخديها فلما انقضى ذلك ولم يدم الا الحى القيوم رازق الطاوس والبوم قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدميه فقالت الصبية الى أين ياسيدى فقال لها الى بيت والدى فحلف عليه أولاد التجار أنه ينام عندهم فأبى وركب بغلته ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه وقالت له ياولدى ماسبب غيابك الى هذا الوقت والله انك قد شوشت على وعلى والدك بغيابك عنا وقد اشتغل خاطرنا عليك ثم ان أمه تقدمت اليه لتقبله فى فمه فشمت منه رائحة الخمر فقالت لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ياولدى كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصى من له الخلق والامر فبينما هما فى الكلام واذا بوالده قد أقبل ثم ان نور الدين ارتمى فى الفراش ونام فقال أبوه ما لنور الدين هكذا فقالت له أمه كان رأسه أوجعته من البستان فعند ذلك تقدم له والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر فقال ويلك ياولدى هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو سكران ولطمه بها فجاءت اللطمة بالامر المقدر على عين والده اليمنى فسالت على خده فوقع على الارض مغشيا عليه واستمر فى غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الورد فلما

أفاق من غشيته أراد أن يضربه فمنعته أمه فحلف بالطلاق من أمه انه اذا أصبح
الصباح لابد من قطع يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت
على ولدها ولم تزل تداري والده وتاخذ بخاطره الى ان غلب عليه النوم فصبرت الى
أن طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له يا نور الدين ما هذا الفعل
القبيح الذي فعلته مع والدك فقال لها وما الذى فعلته مع والدى فقالت انك لطمته
بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد حلف بالطلاق انه اذا أصبح الصباح
لابد ان يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم فقالت
له أمه يا ولدى ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغي لك أن تقوم في هذا الوقت
وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفي عند خروجك حتى تصل الى أحد من أصحابك
وتنظر ما يفعله الله فانه يغير حالا بعد حال ثم ان أمه فتحت صندوق المال وأخرجت
منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له يا ولدى خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالح
حالك فاذا فرغت منك يا ولدى فارسل اعلمني حتى أرسل اليك غيرها واذا راسلتني
فارسل الى أخبارك سرا فلعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ثم انها ودعته
وبكت البكاء الشديد الذى ما عليه من مزيد فعند ذلك أخذ نور الدين كيس الدنانير
من أمه وأراد ان يخرج فرأى كيسا كبيرا قد نسيته أمه بجنب الصندوق فيه ألف
دينار فاخذه نور الدين ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الزقاق وتوجه قبل
الفجر الى جهة بولاق فلما أصبح الصباح وقامت الخلائق توحد الملك الفتاح وخرج
كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما قسم الله تعالى له كان نور الدين وصل الى بولاق
فصار يمشي على ساحل البحر فرأى مركبا سقالتها ممدودة والناس تطلع فيها وتنزل
منها ومراسيها أربع مدقوقة في البر ورأى البحرية واقفين فقال لهم نور الدين الى
أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة اسكندرية فقال لهم نور الدين خذوني معكم
فقالوا أهلا وسهلا ومرحبا بك يا شاب يا مليح فعند ذلك نهض نور الدين من وقته
وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوادة وفرش وغطاء ثم رجع
الى المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين في المركب لم تمكث
الا قليلا وسارت من وقتها وساعتها ولم تزل تلك المركب سائرة حتى وصلت الى

مدينة رشيد فلما وصلوا الى هناك رأى نور الدين زورقا صغيرا سائرا الى الاسكندرية فنزل فيه وعدى الخليج ولم يزل سائرا الى أن وصل قنطرة تسمى قنطرة الجامي فطلع نور الدين من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه فلم ينظره أحد من الواقفين بالباب فمشى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية فرآها مدينة حصينة الاسوار حسنة المتنزهات تلذ لسكانها وترغب في استيطانها قد ولى عنها فصل الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهت أزهارها وأورقت أشجارها وأينعت أثمارها وتدفقت أنهارها وهي مدينة مليحة الهندسة والقياس وأهلها أجناد من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها وهي كما قيل فيها هذه الابيات

قد قلت يوما لخل * له مقال فصيح
اسكندرية صفها * فقال ثغر مليح
قلت وفيها معاش * فقال ان هب ريح

﴿وقال فيها أيضا بعض الشعراء﴾

اسكندرية ثغر * رضابه يستطاب
ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصبها غراب

فمشى نور الدين في تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى ان وصل الى سوق النجارين ثم الى سوق الصرافين ثم الى سوق النقلية ثم الى سوق الفكهانية ثم الى سوق العطارين وهو يتعجب من تلك المدينة لان وصفها قد شاكل اسمها فبينما هو يمشي في سوق العطارين واذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه ثم أخذه من يده ومضى به الى منزله فرأى نور الدين زقاقا مليحا مكنوسا مرشوشا قد هب عليه النسيم وراق وظللته من الاشجار أوراق وفي ذلك الزقاق ثلاث دور وفي صدر ذلك الزقاق دار أساسها راسخ في الماء وجدارها شاهقة الى عنان السماء قد كنسوا الساحة التي قدامها ورشوها وتشم روائح الازهار قاصدوها يقابلها النسيم كانه من جنات النعيم فاول ذلك الزقاق مكنوس مرشوش وآخره بالرخام مفروش فدخل الشيخ بنور الدين الى تلك الدار وقدم له شيأ من المأكول وأكل معه فلما فرغ من الاكل قال له

الشيخ متى كان القدوم من مدينة مصر فقال له ياوالدى فى هذه الليلة قال له ما اسمك
قال على نور الدين فقال له وما اسم أبيك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ ياولدى
يانور الدين يلزمنى الطلاق ثلاثا انك مادمت مقيما فى هذه المدينة لا تفارقنى
وأنا أخلى لك موضعا تسكن فيه فقال له نور الدين ياسيدى الشيخ زدنى بك معرفة
فقال ياولدى اعلم انى دخلت مصر فى بعض السنين بتجارة فبعتها فيها واشتريت
متجرا آخر واحتجت الى ألف دينار فوزنها عنى والدك تاج الدين من غير معرفة له بى
ولم يكتب على بها منشورا وصبر على بها الى ان رجعت الى هذه المدينة وأرسلتها اليه
مع بعض غلمانى ومعها هدية وقد رأيتك وأنت صغير وان شاء الله تعالى اجازيك
ببعض مافعل والدك معى فلما سمع نور الدين هذا الكلام أظهر الفرح والابتسام
وأخرج الكيس الذى فيه الالف دينار وأعطاه لذلك الشيخ وقال له خذها وديعة
عندك حتى أشترى بها شيا من البضائع لاتجر فيه ثم ان نور الدين أقام فى مدينة
اسكندرية مدة أيام وهو يتفرج فى كل يوم فى شارع من شوارعها ويأكل ويشرب
ويتلذذ ويطرب الى ان فرغت منه المائة دينار التى كانت معه برسم النفقة فاتى الى
الشيخ العطار ليأخذ منه شيأ من الالف دينار ينفقه فلم يجده فى الدكان فجلس فى
الدكان ينتظره الى ان يعود وصار يتفرج على التجار ويتامل ذات اليمين وذات اليسار
فبينما هو كذلك واذا بأعجمى قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه
جارية كانها فضة نقية أو بلطية فى فسقية أو غزالة فى برية بوجه يخجل الشمس
المضية وعيون بابلية ونهود عاجية واسنان لؤلؤية وبطن خماصية وأعطاف
مطوية وسيقان كاطراف لية كاملة الحسن والجمال ورشاقة القد والاعتدال
كما قال فيها بعض واصفيها

كانها مثل ماتهواه قد خلقت * فى رونق الحسن لاطول ولاقصر
الورد من خدها يحمر من خجل * والغصن من قدها يزهو به الثمر
فالبدر طلعتها والمسك نكهتها * والغصن قامتها مامثلها بشر
كانها أفرغت من ماء لؤلؤة * فى كل جارحة من جسمها قمر

ثم ان الاعجمى نزل عن بغلته وأنزل الصبية وصاح على الدلال فحضر بين يديه فقال له

خذهذه الجارية ونادعليها في السوق فأخذ الدلال ونزل بها الى السوق وغاب ساعة ثم عاد ومعه كرسي من الآبنوس مزركش بالعاج الابيض فوضعه الدلال على الارض وأجلس عليه تلك الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحته وجه كأنه ترس ديلمي أو كوكب دري وهي كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر بغاية الجمال الباهر كما قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جهلا حسن صورتها * فراح منكسفا وانشق بالغضب
وسرحة البان ان قيست بقامتها * تبت يداها اذا حمالة الحطب

﴿ وما أحسن قول الآخر ﴾

قل للمليحة في الخمار المذهب * ماذا فعلت بعابد مترهب
نور الخمار ونور وجهك تحته * هزما بضوئهما جيوش الغيهب
واذا أتى طرفي ليسرق نظرة * في الخد حراس رمته بكوكب

فعند ذلك قال الدلال للتجار كم دفعتم في درة الغواص وقنية القناص فقال له تاجر من التجار على بمائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلثمائة ولم يزل التجار يتزايدون في تلك الجارية الى أن أوصلوا ثمنها الى تسعمائة وخمسين دينارا وتوقف البيع على الايجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الاعجمي سيدها وقال له ان جاريتك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا فهل تبيع ونقبض لك الثمن فقال الاعجمي هل هي راضية بذلك واني أحب مراعاة خاطرها لاني ضعفت في هذه السفرة وخدمتني هذه الجارية غاية الخدمة فحلفت اني لا أبيعها الا لمن تشتهي وتريد وجعلت بيعها بيدها فشاورها فان قالت رضيت فبعها لمن أرادته وان قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال اليها وقال لها يا سيدة الملاح اعلمي ان سيدك قد جعل بيعك بيدك وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارا أفتأذنين لي أن أبيعك فقالت الجارية للدلال أرني الذي يريد أن يشتريني قبل انعقاد البيع فعند ذلك جاء الدلال بها الى رجل من التجار وهو شيخ كبير هرم فنظرت اليه الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت الى الدلال وقالت له يا دلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك فقال لها الدلال لاي شئ يا سيدة الملاح تقولين لي هذا الكلام

فقالت له الجارية أعجل لك من الله أن تبيع مثلى لهذا الشيخ الهرم الذى قال فى شأن زوجته هذه الابيات

تقول لى وهى غضبى من تدللها * وقد دعتنى الى شئ فما كانا
ان لم تنكنى نيك المرء زوجته * فلا تلمنى اذا أصبحت قرنانا
كان أيرى شمع من رخاوته * فكلما عركته راحتى لانا

(وقال فى ايره أيضا)

لى أير ينام لؤما وشؤما * كلما نلت من حبيب وصالا
واذا ما غدوت فى البيت فردا * طلب الطعن وحده والنزالا

(وقال فى ايره أيضا)

ولى أير سوء كثير الجفا * يعامل باللؤم من يكرمه
اذا نمت قام وان قمت نا * م فلا رحم الله من يرحمه

فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الهجو اغتاظ الغيظ الشديد الذى ما عليه من مزيد وقال للدلال يا انحس الدلالين ما جئت لنا فى السوق الا بجارية مشؤمة تجترئ على وتهجونى بين التجار فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها يا سيدتى لا تكونى قليلة الادب ان هذا الشيخ الذى هجوتيه هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب مشورة التجار فضحكت وأنشدت هذين البيتين

يصلح للحكام فى عصرنا * وذاك للحكام مما يجب
الشنق للوالى على بابه * والضرب بالدرة للمحتسب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله يا سيدى أنا لا أباع لهذا الشيخ فبعنى لغيره لانه ربما خجل منى فباعنى الى آخر فاصير ممتهنة ولا ينبغى لى أن أدنس نفسى بالامتهان وقد علمت أن أمر بيعى مفوّض الى فقال لها الدلال سمعا وطاعة ثم توجه بها الى رجل من التجار الكبار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها يا سيدتى هل أبيعك لسيدى شريف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارا فنظرت اليه الجارية فرأته شيخا ولكن لحيته مصبوغة فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب فى عقلك حتى تبيعنى لهذا الشيخ الفانى فهل أنا من كتكت المشاق أو من مهلهل الاخلاق

حتى تطاوف بى على شيخ بعد شيخ وكلاهما كجدار آيل الى السقوط أو عفريت محقه النجم بالهبوط أما الاول فانه نطق لسان الحال فيه بقول من قال

طلبت قبلتها فى ثغرها فبكت * بدر دمع على الخدين منتظم
ثم انثنت كغزال وهى قائلة * لا والذى أوجد الاشيا من عدم
ما كان لى فى بياض الشيب من أرب * أفى الحياة يكون القطن حشو فمى

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

قالوا بياض الشعر نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى بدا خط المشيب بمفرقى * فوددت أن لا أعدم الظلماء
لو أن لحية من يشيب صحيفة * لعساده ما اختارها بيضاء

﴿وأحسن منه قول الآخر﴾

ضيف ألم برأسى غير محتشم * السيف أحسن فعلا منه باللمم
أبعد بعدت بياضا لا بياض له * لانت أسود فى عينى من الظلم

وأما الآخر فانه ذو عيب وريب ومسود وجه الشيب قد أتى فى خضاب شيبه باقبح مين وأنشدت هذين البيتين

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها * كتمته عنك يا سمعى ويا بصرى
فقهقهت ثم قالت ان ذا عجب * تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

﴿وما أحسن قول الشاعر﴾

يا من يخضب بالسواد مشيبه * كى يستقر له الشباب ويحصل
هاك اختضب بسواد حظى مرة * ولك الضمان بانه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذى صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاظ الغيظ الشديد الذى ما عليه مزيد وقال يا أنحس الدلالين ما جئت فى هذا اليوم سوقنا الا بجارية سفيهة تسفه على كل من فى السوق واحدا بعد واحد وتهجوهم بالاشعار والكلام الفشار ثم ان ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه فاخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال والله ما رأيت عمرى جارية أقل حياء منك وقد قطعت رزقى ورزقك فى هذا النهار وقد بغضنى من أجلك جميع

التجار فرآهما فى الطريق رجل من التجار فزاد فى ثمنها عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين فاستاذن الدلال الجارية فى البيع فقالت أرنى اياه حتى أنظر اليه وأساله عن حاجة فان كانت تلك الحاجة فى بيته فانا أباع له والا فلا فاخذها الدلال واقفة ثم تقدم اليه وقال له ياسيدى شهاب الدين اعلم أن هذه الجارية قالت لى انها تريد أن تسالك عن حاجة فان كانت عندك فانها تباع لك وها أنت قد سمعت ماقالته لاصحابك من التجار وانى والله خائف أن أجىء بها اليك فتعمل معك مثل ماعملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحا فان أذنت لى فى المجىء بها اليك فعلت فقال له ائتنى بها فقال الدلال سمعا وطاعة ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية اليه فنظرته الجارية وقالت له ياسيدى شهاب الدين هل فى بيتك مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فقال لها نعم ياسيدة الملاح عندى فى البيت عشر مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فبالله عليك ماذا تصنعين بهذه المدورات فقالت أصبر عليك حتى ترقد وأجعلها على فمك وأنفك حتى تموت ثم انها التفتت الى الدلال وقالت له ياأخس الدلالين كأنك مجنون حتى تعرضنى من منذ ساعة على اثنين من الشيوخ فى كل واحد منهما عيبان وبعد ذلك تعرضنى على سيدى شهاب الدين وفيه ثلاثة عيوب الاول أنه قصير والثانى أن أنفه كبير والثالث أن لحيته طويلة وقد قال فيه بعض الشعراء

مارأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الخلائق أجمع

فله لحية ذراع وأنف * طول شبر وقامة طول أصبع

(وقال بعضهم أيضا)

منارة الجامع فى وجهه * كهيئة الخنصر فى الخاتم

لودخل العالم فى أنفه * أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق الدلال وقال له ياأنحس الدلالين كيف تاتى الينا بجارية توبخنا وتهجونا واحدا بعد واحد بالاشعار والكلام الفشار فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها والله طول عمرى وانا فى هذه الصناعة مارايت جارية اقل ادبا منك

ولا انحس على من نحسك لانك قد قطعت رزقي في هـذا اليوم ولا ربحت منك الا الصفع على القفا والاخذ بالطوق ثم ان الدلال وقف بتلك الجارية ايضا على تاجر صاحب عبيد وغلمان وقال لها اتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين فنظرته فوجدته احدب فقالت ان هذا احدب وقد قال فيه الشاعر

قصرت منا كبه وطال فقاره * فحكاه شيطان يصادف كوكبا
وكانه قد خاف اول مرة * واحس ثانية فصار محدبا

﴿وقال فيه ايضا﴾

اذا رقي احدكم بغلة * صار بها بين الورى مثله
اماله الضحك فلا تعجبوا * ان جفلت من تحته البغله

﴿وقال فيه ايضا بعض الشعراء﴾

ولرب احدب زاد في حدباته * قبحا وقاطبة العيون تمجه
فكانه غصن تقلص يابس * ولواه من طول المدى اترجه

فعند ذلك اسرع الدلال اليها واخذها واتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه فوجدته اعمش فقالت ان هذا اعمش كيف تبيعني له وقد قال فيه بعض الشعراء رمـد به امراضه * هـدت قواه لحينه
يا قوم قوموا فانظروا * هذا القذى في عينه

فعند ذلك اخذها الدلال واتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه فرات لحيته كبيرة فقالت للدلال ويلك ان هذا الرجل كبش ولكن طلع ذيله من حلقه كيف تبيعني له يا انحس الدلالين اما سمعت ان كل طويل الذقن قليل العقل وعلى قدر طول اللحية يكون نقصان العقل وهذا امر مشهور بين العقلاء كما قال بعض الشعراء

ما رجل طالت له لحية * فزادت اللحية في هيئته
الا وما ينقص من عقله * يكون طولا زاد في لحيته

﴿وكما قال بعض الشعراء ايضا﴾

لنا صديق وله لحية * طولها الله بلا فائده

كانها بعض ليالى الشتا * طويلة مظلمة بارده

فعند ذلك أخذها الدلال ورجع فقالت له الى أين تتوجه بى فقال لها الى سيدك الاعجمى وكفانا ما جرى لنا بسببك فى هذا النهار وقد تسببت فى منع رزقى ورزقه بقلة أدبك ثم ان الجارية نظرت فى السوق والتفتت يمينا وشمالا فوقع نظرها بالامر المقدر على نور الدين على المصرى فرأته شابا مليحا نقى الخد رشيق القد وهو ابن أربعة عشر سنة بديع الحسن والجمال والظرف والدلال كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بجبين أزهر وخد أحمر وعنق كالمرمر وأسنان كالجوهر وريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض واصفيه

بدت لتحاكى حسنه وجماله * بدور وغزلان فقلت لها قفى

رويدك يا غزلان لا تتشبهى * بهذا ويا أقمار لا تتكلفى

﴿وما أحسن قول بعض الشعراء﴾

ومهفهف من شعره وجبينه * تغدو الورى فى ظلمة وضياء

لا تنكروا الخال الذى فى خده * كل الشقيق بنقطة سوداء

فلما نظرت تلك الجارية الى نور الدين حال بينها وبين عقلها ووقع فى خاطرها موقعا عظيما وتعلق قلبها بمحبته والتفتت الى الدلال وقالت له هل هذا الشاب التاجر الذى هو جالس بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودى مازاد فى ثمنى شيأ فقال لها الدلال يا سيدة الملاح ان هذا الشاب غريب مصرى ووالده من أكابر التجار بمصر وله الفضل على جميع تجارها وأكابرها وله مدة يسيرة فى هذه المدينة وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعت من أصبعها خاتم ياقوت مثمنا وقالت للدلال أوصلنى عند هذا الشاب المليح وان اشترانى كان هذا الخاتم لك فى نظير تعبك فى هذا اليوم معنا ففرح الدلال وتوجه بها الى نور الدين فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القد والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفا فى وجهه ماء الجمال * ومن ألحاظه رمى النبال

ويشرب كل صب ان سقاه * بمن صدوده والوصل حالى

فغرته وقامتـه وعشـقى * كمال فى كمال فى كمال
وان غلائل الاثواب منه * مزررة على طوق الهـلال
ومقلتـه وخالاه ودمعى * ليـال فى ليـال فى ليـالى
وحاجبه وطلعته وجسمى * هـلال فى هلال فى هلال
وطافت مقلتاه بكاس خمر * على العشاق ان عبروا حلالى
وارشفنى على ظمأ زلالا * بباسم ثغـره يوم الوصال
فقتلى عنـده ودمى لديه * حلال فى حلال فى حلال

ثم ان الجارية نظرت الى نور الدين وقالت له ياسيدى بالله عليك أما أنا مليحة فقال لها ياسيـدة الملاح وبدر كل كوكب لاح وهل فى الدنيا أحسن منك فقالت له الجارية ولاى شئ رأيت التجار كلهم زادوا فى ثمنى وأنت ساكت ما تكلمت بشئ ولا زدت فى ثمنى دينارا واحدا كاننى ما أعجبتك ياسيدى فقال لها ياسيدتى لو كنت فى بلدى كنت اشتريتك بجميع ما تملكه يدى من المال فقالت له ياسـيدى أنا ما قلت لك اشترنى على غير مرادك ولكن لو زدت فى ثمنى شيأ لجبرت بخاطرى ولو كنت لا تشترى لاجل أن تقول التجار لولا أن هذه الجارية مليحة ما زاد فيها هذا التاجر المصرى لان أهل مصر لهم خبرة بالجوارى فعند ذلك استحى نور الدين من كلام الجارية الذى ذكرته واحمر وجهه وقال للدلال كم بلغ ثمن هـذه الجارية قال بلغ ثمنها تسعـمائة وخمسين دينارا غير الدلالة وأما قانون السـلطان وانه على البائع فقال نور الدين للـدلال خلها على بالف دينار دلالة وثمنا فبادرت الجاريه وتركت الدلال وقالت بعت نفسى لهـذا الشاب المليح بالف دينار فسكت نور الدين فقال واحد بعناه وقال آخر يستاهل وقال آخر ملعون ابن ملعون من يزيد بعـد هـذا وقال آخر والله انهما يصلحان لبعضهما فلم يشعر نور الدين الا والدلال أحضر القضاة والشـهود وكتبوا عقـد البيع والشراء فى ورقة وناولها لنور الدين وقال له تسلم جاريتك الله يجعلها مباركة عليـك لا تصلح الا لك ولا تصلح أنت الا لها وأنشد الدلال هذين البيتين أتته السعادة منقادة * اليه تجرجر أذيالها
فـلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها

فعند ذلك استحى نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الالف دينار التي كان وضعها وديعة عند العطار صاحب أبيه وأخذ الجارية وأتى بها الى البيت الذي أسكنه فيه الشيخ العطار فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطا خلقا ونطعا عتيقا فقالت له ياسيدي هل أنا مالي منزلة عندك حتى تجعلني في غير بيتك الاصلي الذي فيه مصالحك ولاي شيء ما دخلت بي عند أبيك فقال لها نور الدين والله ياسيدة الملاح ما هذا بيتي الذي أنا فيه ولكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أخلاه لي وأسكنني فيه وقد قلت لك انني غريب وانني من أولاد مدينة مصر فقالت له الجارية ياسيدي أقل البيوت يكفي الى أن تطلع الى بلدك ولكن ياسيدي بالله عليك أن تقوم وتاتي لنا بشيء من اللحم المشوي والمدام والنقل والفاكهة فقال لها نور الدين والله ياسيدة الملاح ما كان عندي من المال غير الالف دينار التي وزنتها في ثمنك ولا أملك غير تلك الدنانير شيأ من المال وكان معي بعض دراهم صرفتها بالامس فقالت له أمالك في هذه المدينة صديق تقترض منه خمسين درهما وتاتيني بها حتى أقول لك أي شيء تعمل بها فقال لها مالي صديق سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه الى العطار وقال له السلام عليك ياعم فرد عليه السلام وقال له ياولدي أي شيء اشتريت بالالف دينار في هذا اليوم فقال له اشتريت بها جارية فقال له ياولدي هل أصابك جنون حتى تشتري جارية واحدة بالف دينار ياليت شعري ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين ياعم انها جارية من أولاد الافرنج فقال له الشيخ اعلم ياولدي ان خيار أولاد الافرنج عندنا في هذه المدينة ثمنه مائة دينار ولكن والله ياولدي قد عملت عليك حيلة في هذه الجارية فان كنت أحببتها فبت عندها في هذه الليلة واقض غرضك منها واصبح فانزل بها السوق وبعها ولو كنت تخسر فيها مائة دينار وقدر انها غرقت في البحر أو طلع عليك اللصوص في الطريق فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن ياعم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الالف دينار التي اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق معي شيء أنفقه ولا درهم واحد واني أريد من فضلك واحسانك أن تقرضني خمسين درهما أنفقها الى غد فابيع الجارية وأردها لك من ثمنها فقال الشيخ

أعطيك ياولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال له ياولدي أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مليحة وربما تعلق بها قلبك فيهون عليك أن تبيعها وأنت ماتملك شيأ تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهما فتأتيني فاقرضك أول مرة وثاني مرة وثالث مرة الى عشرة مرات فاذا أتيتني بعد ذلك فلا أرد عليك السلام الشرعي وتضيع محبتنا مع والدك ثم ناوله الشيخ خمسين درهما فاخذها نور الدين وأتى بها الى الجارية فقالت له ياسيدي رح الى السوق فى هذه الساعة وهات لنا بعشرين درهما حريرا ملونا خمسة ألوان وهات لنا بثلاثين درهما لحما وخبزا وفاكهة وشرابا ومشموما فعند ذلك ذهب نور الدين الى السوق واشترى كل ماطلبته تلك الجارية وأتى به اليها فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعاما فاخرا وأتقنته غاية الاتقان ثم قدمت له الطعام فأكل وأكلت معه حتى اكتفيا ثم قدمت المدام وشربت هي واياه ولم تزل تسقيه وتؤانسه الى أن سكر فقامت الجارية من وقتها وساعتها وأخرجت من بقجتها جرابا من أديم طائفي وفتحته وأخرجت منه مسمارين وقعدت فعملت شغلها الى ان فرغ فصار زنارا مليحا فلفته فى خرقة بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخدة ثم قامت فتعرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد بجانبه صبية كأنها فضة نقية أنعم من الحرير وأطرى من الالية وهى أشهر من علم وأحسن من حمر النعم خماسية القد قاعدة النهد بحواجب كأنها قسي السهام وعيون كأنها عيون غزلان وخدود كأنها شقائق النعمان وبطن خماصية الاعكان وسرة تسع أوقية من دهن البان وفخذين كأنهما مخدتان محشوتان من ريش النعام وبينهما شئ يكل عن وصفه اللسان وتنسكب عند وصفه العبرات فكأن الشاعر قصدها بهذه الابيات

فمن شعرها الليل ومن فرقها فجر * ومن خدها ورد ومن ريقها خمر
ومن وصلها ماوى ومن هجرها لظى * ومن ثغرها در ومن وجهها بدر

﴿ وما أحسن قول بعض الشعراء ﴾

بدت قمرا وماست غصن بان * وفاحت عنبرا ورنت غزالا

كان الحزن مشغوف بقلبي * فساعة هجرها عدد الوصالا
لها وجه يفرق على الثريا * ونور جبينها فاق الهلالا

﴿وقال بعضهم أيضا﴾

سفرن بدورا وانقلبن أهلة * وملن غصونا والتفتن جاذرا
وفيهن كحلاء العيون لحسنها * تود الثريا أن تكون لها ثرى

فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته الى تلك الجارية وضمها الى صدره ومص شفتها الفوقية بعد ان مص التحتية ثم زرق اللسان بين الشفتين وقام اليها فوجدها درة ما ثقبت ومطية لغيره ما ركبت فازال بكارتها ونال منها الوصال وانعقدت بينهما المحبة بلا انفكاك ولا انفصال وتابع في خدها تقبيلا كوقع الحصى في الماء وهزا كطعن الرماح في المهرة الشعواء لان نور الدين كان مشتاقا الى اعتناق الحور ومص الثغور وغمز الخصور وعض الخدود وضم النهود مع حركات مصريه وغنج يمانيه وشهيق حبشيه وفتور هنديه وغلمة نوبيه وتنخر ريفيه وأنين دمياطيه وحرارة صعيديه وفترة سكندريه وكانت هذه الجارية جامعة لهذه الخصال مع فرط الجمال والدلال كما قال فيها الشاعر المفضال

هذي التي انا طول الدهر ناسيها * فلا جنحت الى من ليس يدنيها
كانها البدر في تكوين صورتها * سبحان خالقها سبحان باريها
ان كان ذنبي عظيما في محبتها * فليس لي توبة يوما ارجيها
قد صيرتني حزينا ساهرا دنفا * والقلب قد حار فكرا في معانيها
وأنشدت بيت شعر ليس يعرفه * الا فتى اقوافي الشعر يرويها
لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

ثم نام نور الدين مع تلك الجارية الى الصباح في لذة وانشراح لابسين حلل العناق محكمة الازرار آمنين طوارق الليل والنهار وقد باتا على أحسن حال ولم يخشيا من أحد الوصال ولا كثرة القيل والقال كما قال فيها الشاعر المفضال

زر من تحب ودع مقالة حاسد * ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن احسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد

متعانقين عليهما حلل الرضا * متوسدين بمعصم وبساعد
واذا تالفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب فى حديد بارد
يامن يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد
واذا صفا لك من زمانك واحد * نعم الصديق وعش بذاك الواحد

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح انتبه نور الدين من نومه فرآها أحضرت الماء فاغتسل هو وإياها وأدى ما عليه من الصلاة لربه ثم أتته بما تيسر من المأكول والمشروب فاكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة وأخرجت الزنار الذى صنعته بالليل وناولته اياه وقالت له ياسيدى خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا الزنار فقالت ياسيدى هو الحرير الذى اشتريته البارحة بالعشرين درهما فقم واذهب به الى سوق العجم وأعطه للدلال لينادى عليه ولا تبعه الا بعشرين دينارا سالمة ليدك فقال لها نور الدين ياسيدة الملاح هل شئ بعشرين درهما يباع بعشرين دينارا يعمل فى ليلة واحدة فقالت له الجارية ياسيدى أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن اذهب به الى السوق وأعطه للدلال فاذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى به الى سوق الاعاجم وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادى عليه وقعد نور الدين على مصطبة دكان فغاب الدلال عنه ساعة ثم أتى اليه وقال له ياسيدى قم فاقبض ثمن زنارك فقد بلغ عشرين دينارا سالمة ليدك فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب واهتز من الطرب وقام ليقبض العشرين دينارا وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض الدنانير ذهب من ساعته واشترى بها كلها حريرا من سائر الالوان لتعمله الجارية كله زنانير ثم رجع الى البيت وأعطاها الحرير وقال لها اعمليه كله زنانير وعلمينى أيضا حتى أعمل معك فانى طول عمرى ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر مكسبا منها قط وانها والله أحسن من التجارة بالف مرة فضحكت الجارية من كلامه وقالت له ياسيدى نور الدين امض الى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفى غد ادفعها له من ثمن الزنار مع الخمسين درهما التى اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى الى صاحبه العطار وقال له ياعم اقرضنى ثلاثين درهما وفى غد ان شاء الله تعالى أجى لك بالثمانين

درهما جملة واحدة فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فاخذها نور الدين وأتى بها الى السوق واشترى بها لحما وخبزا ونقلا وفاكهة ومشموما ومشروبا كما فعل بالامس وأتى به الى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية فاخذت اللحم وقامت من وقتها وساعتها وهيات طعاما فاخرا ووضعته قدام سيدها نور الدين ثم بعد ذلك هيات سفرة المدام وتقدمت هي واياه وصارت تملأ وتسقيه وهو يملأ ويسقيها فلما لعب المدام بعقلهما أعجبها حسن لطافته ورقة معانيه وانشدت هذين البيتين

أقول لاهيف حيا بكاس * لها من مسك نكهته ختام

أمن خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من الورد المدام

ولم تزل تلك الجارية تنادم نور الدين وينادمها وتعاطيه الكاس والطاس وتطلب أن يملأ لها ويسقيها ما تطيب به الانفاس واذا وضع يده عليها تتمنع منه دلالا وقد زادها السكر حسنا وجمالا وأنشدت هذين البيتين

وهيفاء تهوى الراح قالت لصبها * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها

اذا لم تدر كاس المدام وتسقني * أبيتك مهجور الخاف ملالها

ولم يزالا كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار على جري عادتها ولما فرغت من عملها فيه أصلحته ولفته في ورقة ثم نزعت ثيابها ونامت بجانبه الى الصباح وكان ما بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور الدين وقضى شغله وناولته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشرين دينارا كما بعت نظيره بالامس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين دينار وأتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فعاله معه ودعا له فقال له ياولدي هل أنت بعت الجارية فقال نور الدين كيف أبيع روحي من جسدي ثم انه حكى له الحكاية من المبتدى الى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له من أوله الى آخره ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال له والله ياولدي انك قد فرحتني وان شاء الله تعالى أنت بخير دائما فاني اود لك الخير لمحبتي لوالدك وبقاء صحبتي معه ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته الى السوق واشترى اللحم والفاكهة والشراب وجميع ما يحتاج اليه على جري العادة واتى به

الى ثلاث الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية فى أكل وشرب ولعب وانشراح وود ومنادمة مدة سنة وهى تعمل فى كل ليلة زنارا فيبيعه بعشرين دينارا ينفق منها ما يحتاج اليه والباقى يعطيه لها تحفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد السنة قالت له ياسيدى نور الدين اذا بعت الزنار فى غد فخذ لى من ثمنه حريرا ملونا ستة ألوان فانه قد خطر ببالى أن أصنع لك منديلا تجعله على كتفك ما فرحت بمثله أولاد التجار ولا أولاد الملوك الكبار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وباع الزنار واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنارية تصنع فى المنديل جمعة كاملة لانها كلما فرغت من زنار فى ليلة تعمل فى المنديل شيأ الى ان خلصته ثم ناولته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يمشى به فى السوق فصار التجار والناس وأكابر البلد يقفون عنده صفوفا يتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعته فاتفق ان نور الدين كان نائما ذات ليلة من الليالى فانتبه من منامه فوجد جاريته تبكى بكاء شديدا وتنشد هذه الابيات

دنا فراق الحبيب واقتربا * واحربا للفراق واحربا
تفتتت مهجتى فوا أسفى * على ليال مضت لنا طربا
لابد أن ينظر الحسود لنا * بعين سوء ويبلغ الاربا
فما علينا أضر من حسد * ومن عيون الوشاة والرقبا

فقال لها نور الدين ياسيدتى مريم مالك تبكين فقالت له أبكى من ألم الفراق فقد أحس قلبى به فقال لها ياسيدة الملاح ومن الذى يفرق بيننا وأنا الآن أحب الخلق اليك وأعشقهم لك فقالت له ان عندى أضعاف ما عندك ولكن حسن الظن بالليالى يوقع الناس فى الاسف وقد أحسن الشاعر حيث قال

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر
وفى السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر
وكم على الارض من خضر ويابسة * وليس يرجم الا ماله ثمر

أماترى البحر يعلوفوقه جيف * وتستقر باقصى قاعه الدرر

ثم قالت ياسيدى نورالدين اذا كنت تحرص على عدم الفراق فخذ حذرك من رجل افرنجى أعور العين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهوشيخ أغبر الوجه مكاشم اللحية لانه هوالذى يكون سببا لفراقنا وقدرايته أتى فى تلك المدينة وأظن انه ماجاء الافى طلبى فقال لها نورالدين ياسيدة الملاح ان وقع بصرى عليه قتلته ومثلت به فقالت له مريم ياسيدى لا تقتله ولا تكلمه ولا تبايعه ولا تشاره ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تحدث معه بكلام قط وادع الله أن يكفينا شره ومكره فلما أصبح الصباح أخذ نورالدين الزنار وذهب الى به السوق وجلس على مصطبة دكان يتحدث هو وأولاد التجار فاخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان فبينما هونائم واذا بذلك الافرنجى مرعلى ذلك السوق فى تلك الساعة ومعه سبعة من الافرنج فرأى نور الدين نائما على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه فى يده فقعد الافرنجى عنده وأخذ طرف المنديل وقلبه فى يده واستمر يقلب فيه ساعة فاستحس به نورالدين فافاق من النوم فرأى الافرنجى الذى وصفته الجارية بعينه جالسا عند رأسه فصرخ عليه نورالدين صرخة عظيمة أرعبته فقال الافرنجى لاى شئ تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيأ فقال له نورالدين والله ياملعون لو كنت أخذت منى شيأ لكنت ذهبت بك الى الوالى فقال له الافرنجى يامسلم بحق دينك وما تعتقده أن تخبرنى من أين لك هذا المنديل فقال له نورالدين هوشغل والدتى عملته لى بيدها فقال له الافرنجى أتبيعه وتاخذ ثمنه منى فقال له نورالدين والله ياملعون لاأبيعه لك ولا لغيرك فانها ماعملته الاعلى اسمى ولم تعمل غيره فقال بعه لى وأنا أعطيك ثمنه فى هذه الساعة خمسمائة دينار ودع التى عملته تعمل لك غيره أحسن منه فقال له نورالدين أناما أبيعه أبدا لانه لانظيرله فى هذه المدينة فقال له الافرنجى ياسيدى وهل لا تبيعه بستمائة دينار من الذهب الخالص ولم يزل يزيده مائة بعدمائة الى أن وصله الى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على بغير بيعه أناما أبيعه ولا بالفى دينار ولا باكثر ابدا ولم يزل ذلك الافرنجى يرغب نورالدين بالمال فى ذلك المنديل الى ان وصله الى ألف دينار فقال له جماعة من التجار الحاضرين نحن بعناك هذا

المنديل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أبيعه والله فقال له تاجر من التجار اعلم
ياولدي ان هذا المنديل قيمته مائة دينار ان كثرت ووجد له راغب وان هذا
الافرنجي دفع فيه ألف دينار جملة فربحك تسعمائة دينار فاي ربح تريد أكبر من
هذا الربح والرأي عندي أنك تبيع هذا المنديل وتاخذ الالف دينار وتقول للتي
عملته تعمل لك غيره او أحسن منه واربح أنت الالف دينار من هذا الافرنجي
الملعون عدو الدين فاستحى نور الدين من التجار وباع للافرنجي المنديل بالف
دينار ودفع له الثمن في الحضرة وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضي الى جاريته مريم
ليبشرها بما كان من أمر الافرنجي فقال الافرنجي ياجماعة التجار احجزوا نور الدين
فانكم واياه ضيوفي في هذه الليلة فان عندي بتية خمر رومي من معتق الخمر وخروفا
سمينا وفاكهة ونقلا ومشموما فانتم تؤانسونني في هذه الليلة ولا يتاخر أحد منكم فقال
التجار ياسيدي نور الدين نشتهي ان تكون معنا في مثل هذه الليلة لنتحدث
معك فمن فضلك واحسانك أن تكون معنا فنحن واياك ضيوف عند هذا الافرنجي
لانه رجل كريم ثم انهم حلفوا عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح الى بيته
ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين وأخذوا معهم نور الدين وذهبوا مع
الافرنجي الى قاعة مطيبة بليوانين فاجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة غريبة
الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر ومكسور وعاشق ومعشوق وسائل ومسئول
ثم وضع الافرنجي على تلك السفرة الاواني النفيسة من الصيني والبلور وكلها مملوءة
بنفائس النقل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم الافرنجي بتية مملوءة بالخمر الرومي
المعتق وأمر بذبح خروف سمين ثم ان الافرنجي أوقد النار وصار يشوي من ذلك
اللحم ويطعم التجار ويسقيهم من ذلك الخمر ويغمزهم على نور الدين أن ينزلوا
عليه بالشراب فلم يزالوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده فلما رآه الافرنجي
مستغرقا في السكر قال آنستنا ياسيدي نور الدين في هذه الليلة فرحبا بك ثم
مرحبا بك وصار الافرنجي يؤانسه بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه وسارقه
في الحديث ساعة زمانية ثم قال له ياسيدي نور الدين هل تبيعني جاريتك التي
اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بالف دينار من مدة سنة وانا اعطيك في ثمنها الآن

خمسة آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف فأبى نور الدين ولم يزل ذلك الافرنجي يطعمه ويسقيه ويرغبه في المال حتى أوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور الدين وهو في سكره قدام التجار بعتك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح الافرنجي بذلك القول فرحا شديدا وأشهد عليه التجار وباتوا في أكل وشرب وانشراح الى أن أصبح الصباح فصاح الافرنجي على غلمانه وقال لهم ائتوني بالمال فاحضر والمال فعد لنور الدين العشرة آلاف دينار نقدا وقال له ياسيدي نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريتك التي بعتها الى الليلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين فقال نور الدين ياملعون أنا ما بعتك شيأ وأنت تكذب على وليس عندي جوار فقال له الافرنجي قد بعتني جاريتك وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع فقال التجار كلهم نعم يا نور الدين أنت بعته جاريتك قدامنا ونحن نشهد عليك انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار قم فاقبض الثمن وسلمه الجارية والله يعوضك خيرا منها أتنكره يانور الدين انك اشتريت جارية بالف دينار ولك سنة تتمتع بحسنها وجمالها وتتلذذ في كل يوم وليلة بمنادمتها ووصالها وبعد ذلك ربحت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصلي وفي كل يوم تعمل لك زنارا تبيعه بعشرين دينارا وبعد ذلك كله تنكر البيع وتستقل الربح أي ربح أكثر من هذا الربح وأي مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تحبها فها أنت قد شبعت منها في هذه المدة فاقبض الثمن واشتر غيرها أحسن منها أو نزوجك بنتا من بناتنا بمهر أقل من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجمل منها ويصير معك باقي المال راس مال في يدك ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة الى ان قبض العشرة آلاف دينار ثمن الجارية واحضر الافرنجي من وقته وساعته القاضي والشهود فكتبوا له حجة بشراء الجارية التي اسمها مريم الزنارية من نور الدين هذا ما كان من امر نور الدين ﴿واما﴾ ما كان من امر مريم الزنارية فانها قعدت تنتظر سيدها نور الدين جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى العشاء ومن العشاء الى نصف الليل فلم يعد اليها سيدها المذكور فجزعت وصارت تبكي بكاء شديدا فسمعها الشيخ العطار وهي تبكي فارسل اليها زوجته فدخلت عليها فرأتها

تبكي فقالت لها ياسيدتي مالك تبكين فقالت لها ياأمي اني قعدت انتظر مجيء سيدي نور الدين فما جاء الى هذا الوقت وأنا خائفة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من شاني لاجل أن يبيعني فدخلت عليه الحيلة وباعني فقالت لها زوجة العطار ياسيدتي مريم لو أعطوا سيدك فيك مل هذه القاعة ذهبا لم يبعك لما أعرفه من محبته لك ولكن ياسيدتي مريم ربما يكون جماعة أتوا من مدينة مصر من عند والده فعمل لهم عزومة في المحل الذي هم نازلون فيه واستحى أن يأتي بهم الى هذا المحل لانه لا يسعهم أولان مرتبتهم أقل من أن يجيء بهم الى البيت أو أحب أن يخفي أمرك عنهم فبات عندهم الى الصباح ويأتي ان شاء الله تعالى اليك في غد بخير فلا تحملي نفسك هما ولا غما فهذا سبب غيابه عنك في هذه الليلة وها أنا أبيت عندك وأسليك الى أن يأتي اليك سيدك ثم ان زوجة العطار صارت تلاطف مريم وتسليها بالكلام الى أن ذهب الليل كله فلما أصبح الصباح نظرت مريم الى سيدها نور الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الافرنجي سائر وراءه وجماعة التجار حواليه فلما رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد كأنها سفينة في وسط بحر فلما رأتها امرأة العطار قالت لها ياسيدتي مريم مالي أراك قد تغير حالك واصفر وجهك فقالت لها الجارية ياسيدتي والله ان قلبي قد أحس بالفراق وبعد التلاق ثم ان الجارية تأوهت بتصاعد الزفرات وأنشدت هذه الابيات

لا تركنن الى الفراق * فانه مر المذاق *

الشمس عند غروبها * تصفر من ألم الفراق

وكذاك عند شروقها * تبيض من فرح التلاق

ثم ان مريم الزنارية بكت البكاء الشديد الذي ما عليه مزيد وتيقنت الفراق وقالت لزوجة العطار ياسيدتي أما قلت لك أن سيدي نور الدين قد عملت عليه حيلة من أجل بيعي فما أشك في أنه باعني في هذه الليلة لهذا الافرنجي وقد كنت حذرته منه ولكن لا ينفع حذر من قدر فقد بان لك صدق قولي فبينما هي وزوجة العطار في الكلام واذا بسيدها نور الدين قد دخل عليها في تلك الساعة فنظرت اليه الجارية

فرأته قد تغير لونه وتشوش ذهنه ولاح على وجهه أثر الحزن والندم فقالت له ياسيدي نور الدين جعلت فداك مابالك وما الذي تغير منه حالك كأنك بعتني فبكى بكاء شديدا وتأوه وتنفس الصعداء وأنشد هذه الابيات

هي المقادير فما يغني الحذر * ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
اذا أراد الله أمرا بامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذنيه وأعمى عينه * وسل منه عقله سل الشعر
حتى اذا أنفذ فيه حكمه * رد اليه عقله ليعتبر
لا تقل فيما جرى كيف جرى * كل شئ بقضاء وقدر

ثم ان نور الدين اعتذر الى الجارية وقال لها والله ياسيدتي مريم انه قد جرى القلم بما قدر الله وحكم والناس قد عملوا على حيلة من أجل بيعك فدخلت على الحيلة فبعتك وقد فرطت فيك أعظم تفريط ولكن عسى من حكم بالفراق أن يمن بالتلاق فقالت له قد حذرتك من هذا وكان في وهمي ثم ضمته الى صدرها وقبلته بين عينيه وأنشدت هذه الابيات

وحق هواكم ماسلوت ودادكم * ولو تلفت روحي هوى وتشوقا
أنوح وأبكي كل يوم وليلة * كما ناح قمري على شجر النقا
تنغص عيشي بعدكم يا أحبتي * ومذ غبتم عني فمالي ملتقى

فبينما هما على هذه الحالة يتناشدان الاشعار ويسكبان الدموع الغزار واذا بالافرنجي قد طلع عليهما وتقدم ليقبل أيدي السيدة مريم فلطمته بكفها على خده وقالت له ابعد ياملعون فمازلت خلفي حتى خدعت سيدي ولكن ياعدو الله ان شاء الله تعالى لايكون الا خيرا وأرمي كيدك في نحرك فضحك الافرنجي من قولها وتعجب من فعلها واعتذر اليها وقال لها ياسيدتي مريم أي شئ ذنبي أنا وانما سيدك نور الدين هذا هو الذي باعك برضا نفسه وطيب خاطره وانه وحق المسيح لو كان يحبك ما فرط فيك ولولا أنه فرغ غرضه منك ما باعك وقد قال بعض الشعراء

من ملني فليمض عني عامدا * ان عدت أذكره فلست براشد
ماضاقت الدنيا علي باسرها * حتى تراني راغبا في زاهد

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك افرنجة وهي مدينة واسعة الجهات كثيرة الصنائع والغرائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة أبيها حديث غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى يطرب منه السامع ويطيب وذلك انها تربت عند أبيها وأمها في العز والدلال والانس والكمال وتعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة وغالب مهمات الصنائع مثل الزركشة والخياطة وصنعة الزنانير والعقادة ورمي الذهب على الفضة وغير ذلك واتقنت صنائع الرجال والنساء حتى صارت ماهرة في كل صناعة فصارت فريدة في عصرها ووحيدة في دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من الحسن والجمال والظرف الذي لم يوجد مثله في نساء ولا رجال فخطبها ملوك الجزائر من أبيها وكل من خطبها منه يابى أن يزوجها له لانه كان يحبها حبا شديدا ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة ولم يكن عنده بنت غيرها وكان معه من الاولاد الذكور كثير ولكنه كان مشغوفا بحبها أكثر منهم فاتفق انها مرضت في بعض السنين مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها اذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير الفلاني الذي في الجزيرة الفلانية وكان ذلك الدير معظما عندهم وينذرون له النذور ويتبركون به فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت أن توفي بنذرها الذي نذرته على نفسها لذلك الدير فارسلها ملك افرنجة الى ذلك الدير في مركب صغيرة وأرسل معها بعضا من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لاجل خدمتها فلما قربت من الدير صادفها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين في سبيل الله فاخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات والاموال والتحف فباعوا ما أخذوه في مدينة القيروان فوقعت مريم في يد رجل أعجمي تاجر من التجار وقد كان ذلك الاعجمي عنينا لا يأتي النساء ولم تنكشف له عورة على امرأة فجعلها للخدمة ثم ان ذلك الاعجمي مرض مرضا شديدا حتى أشرف على الهلاك وطال عليه المرض مدة شهور فخدمته مريم وبالغت في خدمته الى أن عافاه الله من مرضه فتذكر ذلك الاعجمي منها الشفقة والحنية عليه والقيام بخدمته فاراد أن يكافئها على ما فعلته معه من الجميل فقال لها تمني علي يا مريم فقالت يا سيدي تمنيت عليك أن

لا تبيعنى الالمن أريده وأحبه فقال لها نعم لك على ذلك والله يامريم ما أبيعك الالمن تريدينه وقد جعلت بيعك بيدك ففرحت فرحا شديدا وكان الاعجمى قد عرض عليها الاسلام فاسلمت وعلمها العبادات فتعلمت من ذلك الاعجمى فى تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها وحفظها القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والاحاديث النبوية فلما دخل بها مدينة اسكندرية باعها لمن أرادته وجعل بيعها بيدها كما ذكرنا فاخذها على نور الدين كما أخبرناه هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افرنجة فانه لما بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال والشجعان فلم يقعوا لها على خبر بعد التفتيش فى جزائر المسلمين ورجعوا الى أبيها بالويل والثبور وعظائم الامور فحزن عليها أبوها حزنا شديدا فارسل خلفها ذلك الاعور اليمين الاعرج الشمال لانه كان أعظم وزرائه وكان جبارا عنيدا ذا حيل وخداع وأمره ان يفتش عليها فى جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بملء مركب ذهبا ففتش عليها ذلك الملعون فى جزائر البحار وغالب المدن فلم يقع لها على خبر الى أن وصل الى مدينة اسكندرية وسال عنها فوقع على خبرها عند نور الدين على المصرى فجرى له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها بالمنديل الذى لا يحسن صنعته غيرها وكان قد وصى التجار واتفق معهم على خلاصها بالحيلة فلما صارت عنده مكثت فى بكاء وعويل وحزن طويل فقال لها ياسيدتى مريم خلى عنك هذا الحزن والبكاء وقومى معى الى مدينة ابيك ومحل مملكتك ومنزل عزك ووطنك لتكونى بين خدمك وغلمانك وحشمك واتركى هذا الذل وهذه الغربة ويكفى ماقد حصل لى من التعب والسفر من أجلك وصرف الاموال فان لى فى السفر والتعب وصرف الاموال نحو سنة ونصف وقد أمرنى والدك أن اشتريك ولو بملء مركب ذهبا ثم ان ذلك الوزير صار يقبل قدميها ويخضع لها ولم يزل يكرر تقبيل يديها وقدميها وهى تزداد فى الغضب عليه وهو مع ذلك منقادا اليها ويفعل ذلك كله أدبا معها واحتراما لشانها وقد قالت له ياملعون ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما فى مرادك ثم قدم اليها الغلمان فى تلك

الساعة ببغلة بسرج مزركش واركبوها عليها ورفعوا فوق رأسها سحابة من حرير بعمد من ذهب وفضة وصار الافرنج يمشون حولها حتى طلعوا بها من باب البحر وأنزلوها فى قارب صغير وصاروا يقذفون بها الى ان أوصلوها الى المركب الكبيرة وأنزلوها فيها فعند ذلك نهض الوزير الاعور وقال لبحرية المركب ارفعوا الصارى فرفعوه من وقتهم ونشروا القلوع والاعلام وسافرت بهم تلك المركب هذا كله ومريم تنظر الى ناحية اسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكى فى سرها بكاء شديدا وقد سكبت العبرات وأنشدت هذه الابيات

أيا منزل الاحباب هل لك عودة * الينا وما علمى بما الله صانع
فسارت بنا سفن الفراق وأسرعت * وطرفى قريح قد محته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدى * به يشتفى سقمى وتمحى المواجع
ألا يا الهى كن عليه خليفتى * فعندك حقا لا تضيع الودائع

ولم تزل مريم كلما تذكرته تبكى وتنوح فاقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل منهم كلاما بل شغلها داعى الوجد والغرام وزاد بها النحيب والهيام فاشتدت بها الحسرات وأنشدت هذه الابيات

لسان الهوى فى مهجتى لك ناطق * يخبر عنى أننى لك عاشق
ولى كبد حر الهوى قد أذابها * وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى * وجفنى قريح والدموع سوابق

ولم تزل مريم على هذه الحالة لا يقر لها قرار ولا يطاوعها الاصطبار مدة سفرها هذا ما كان من أمرها هى والوزير الاعور (وأما) ما كان من أمر نور الدين على المصرى فانه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار ولا يجد له عن فراقها اصطبار فتوجه الى القاعة التى كان مقيما بها هو ومريم فرآها فى وجهه سوداء مظلمة ورأى العدة التى كانت تشتغل عليها الزنانير وثيابها التى كانت على جسدها فضمها الى صدره وبكى وأن لفراق حبيبته واشتكى وفاضت من جفنه العبرات وأنشد هذه الابيات

ترى هل يعود الشمل بعد تشتتى * وبعد توالى حسرتى وتلفتى

فهيهات ماقد كان ليس براجع * فياهل ترى أحظى بوصل حبيبتى
وياهل ترى قد يجمع الله شملنا * وتذكر أحبابى عهودى ودنى
ويحفظ ودى من يجهلى أضعته * ويرعى عهودى ثم سالف صحبتى
فما أنا الاميت بعد بعدهم * وهل ترتضى الاحباب يوما منيتى
فيا أسفى ان كان يجدى تاسف * لقد ذبت وجدا من تزايد حسرتى
وضاع زمان كان فيه تواصلى * فياهل ترى دهرى يجود بمنيتى
فيا قلب زد وجدا وياعين أهملى * دموعا ولا تبقى الدموع بمقلتى
ويا بعد أحبابى وفقد تصبرى * لقد قل انصارى وزادت بليتى
سالت اله العالمين يجودلى * بعود حبيبى والوصال كعادتى

ثم ان نور الدين بكى البكاء الشديد الذى ما عليه مزيد ونظر الى زوايا القاعة وأنشد هذين البيتين

أرى آثارهم فاموت شوقا * وأسكب فى مواطنهم دموعى
واسال من قضى بالبعد عنهم * يمن على يوما بالرجوع

ثم ان نور الدين نهض من وقته وساعته وقفل باب الدار وخرج يجرى الى البحر وصار يتامل فى موضع المركب التى سافرت بمريم فبكى وصعد الزفرات وأنشد هذه الابيات

سلام عليكم ليس لى عنكم غنا * وانى على الحالين فى القرب والبعد
أحن اليكم كل وقت وساعة * وأشتاقكم شوق العطاش على الورد
وعندكم سمعى ولبى وناظرى * وتذكاركم عندى ألذ من الشهد
فيا أسفى لما استقلت ركابكم * وحدت بكم تلك السفينة عن قصد

ثم ان نور الدين ناح وبكى وأن وحن واشتكى ونادى يامريم يامريم هل كانت رؤيتى لك فى المنام أم أضغاث أحلام ولما زاد به الحزن والحسرات أنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد عينى تراكم * وأسمع من قرب الديار نداكم
وتجمعنا الدار التى آنست بنا * وأعطى منى قلبى وأنتم مناكم

خذوا العظامى أين سيرتم محفة * وأين حللتم فادفنونى حذاكم
فلو كان لى قلبان عشت بواحد * واترك قلبا مغرما فى هواكم
ولو قيل لى ماذا على الله تشتهى * لقلت رضا الرحمن ثم رضاكم

فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكى و يقول يامريم واذا بشيخ قد طلع من مركب وأقبل عليه فرآه يبكى و ينوح و ينشد هذين البيتين

يامريم الحسن عودى ان لى مقلا * سحائب المزن تجرى من سوا كبها
واستخبرى عزلى دون الانام ترى * أجفان عينى غرقى فى كواكبها

فقال له الشيخ يا ولدى كأنك تبكى على الجارية التى سافرت البارحة مع الافرنجى فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خر مغشيا عليه ساعة زمانية ثم أفاق و بكى البكاء الشديد الذى ما عليه من مزيد وأنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد يرجى وصالها * ولذة أنسى قد يعود كمالها
فان بقلبى لوعة وصبابة * و يزعجنى قيل الوشاة وقالها
أقيم نهارى باهتا متحيرا * وفى الليل أرجوا أن يزور خيالها
فوالله لا أسلو عن العشق ساعة * وكيف ونفسى فى الوشاة ملالها
منعمة الاطراف مهضومة الحشا * لها مقلة فى القلب منى نبالها
يحاكى قضيب البان فى الروض قدها * و يخجل ضوء الشمس حسنا جمالها
ولولا أخاف الله جل جلاله * لقلت لذات الحسن جل جلالها

فلما نظر ذلك الشيخ الى على نور الدين ورأى جماله وقده واعتداله وفصاحة لسانه ولطف افتنانه حزن قلبه عليه و رق لحاله وكان ذلك الشيخ رئيس مركب مسافرة الى مدينة تلك الجارية وفيها زيادة عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر ياولدى ولا ترى الا خيران شاء الله تعالى أوصلك اليها فقال له نور الدين متى السفر ياسيدى فقال الرئيس قد بقى لنا ثلاثة أيام ونسافر فى خير وسلامة فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحا شديدا وشكر فضله واحسانه و بعد ذلك تذكر أيام الوصال واجتماع الشمل بجاريته ذات الحسن والجمال فبكى بكاء شديدا وانشد هذه الابيات

فهل يجمع الرحمن لي ولكم شملا * وهل أبلغ المقصود ياسادتي أم لا
ويسمح صرف الدهر منكم بزورة * واطبق أجفاني على ذاتكم بخلا
ولو كان وصلكم يباع اشتريته * بروحي ولكن أرى وصلكم أغلى

ثم ان نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق وأخذ منه جميع ما يحتاج اليه من الزاد وأدوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له ياولدي ما هذا الذي معك قال زوادتي وما احتاج اليه في السفر فضحك الرئيس من كلامه وقال له ياولدي هل أنت رائح تتفرج على عمود السواري ان بينك وبين مقصدك مسيرة شهرين اذا طاب الريح وصفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيأ من الدراهم وطلع الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه في السفر على قدر كفايته وملأ له بتية ماء حلوا ثم أقام نور الدين في المركب ثلاثة أيام الى أن تجهز التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا في المركب ثم حل الرئيس قلوعها وسار وامدة أحد وخمسين يوما وبعد ذلك خرج على القرصان قطاع الطريق فنهبوا المركب وأسروا جميع من فيها وأتوا بهم الى مدينة أفرنجة وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جملتهم فامر الملك بحبسهم وفي وقت نزولهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب الذي فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الاعور فلما وصل الغراب الى المدينة طلع الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمة فدقوا البشائر وزينوا المدينة باحسن زينة وركب الملك في جميع عسكره وأرباب دولته وتوجهوا الى البحر ليقابلوها فلما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فعانقها وسلم عليها وقدم لها جوادا فركبته فلما وصلت الى القصر قابلتها أمها وعانقتها وسلمت عليها وسالتها عن حالها وهل هي بكر مثل ما كانت عندهم سابقا أو صارت امرأة ثيبا فقالت لها مريم ياأمي بعد أن يباع الانسان في بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر ويصير محكوما عليه كيف تبقى بنت بكرا ان التاجر الذي اشتراني هددني بالضرب وأكرهني فازال بكارتي وباعني لآخر وآخر باعني لآخر فلما سمعت أمها هذا الكلام صار الضياء في وجهها كالظلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فصعب ذلك عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته فقالوا له

أيها الملك انها تنجست من المسلمين وما يطهرها الاضرب مائة رقبة من المسلمين
فعند ذلك امر الملك باحضار الاسارى الذين فى الحبس فاحضروهم جميعا بين يديه
ومن جملتهم نور الدين فامر الملك بضرب رقابهم فاول من ضرب رقبته رئس المركب
ثم ضربوا رقاب التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نور الدين فشرطوا ذيله
وعصبوا عينيه وقدموه الى نطع الدم وارادوا أن يضربوا رقبته واذا بامرأة عجوز
أقبلت على الملك فى تلك الساعة وقالت له يامولاى أنت كنت نذرت لكل كنيسة
خمسة أسارى من المسلمين ان رد الله بنتك مريم لاجل أن يساعدونا فى خدمتها
والآن قد وصلت اليك بنتك السيدة مريم فاوف بنذرك الذى نذرته فقال لها
الملك ياأمى وحق المسيح والدين الصحيح لم يبق عندى من الاسارى غير هذا الاسير
الذى يريدون قتله فخذيه معك يساعدك فى خدمة الكنيسة الى أن يأتى الينا
أسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة أخر ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب
هولاء الاسارى لاعطيناك كل ماتريدينه فشكرت العجوز صنيع الملك ودعت له
بدوام العز والبقاء والنعم ثم تقدمت العجوز من وقتها وساعتها الى نور الدين وأخرجته
من نطع الدم ونظرت اليه فرأته شابا لطيفا ظريفا رقيق البشرة ووجهه كانه البدر
اذا بدر فى ليلة أربعة عشر فاخذته ومضت به الى الكنيسة وقالت له ياولدى اقلع
ثيابك التى عليك فانها لاتصلح الا لخدمة السلطان ثم ان العجوز جاءت لنور الدين بجبة
من صوف اسود ومئزرا من صوف أسود وسير عريض فالبسته تلك الجبة وذلك المئزر
وشدت وسطه بالسير وامرته أن يخدم الكنيسة فخدم الكنيسة مدة سبعة أيام فبينما هو
كذلك واذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له يامسلم خذ ثيابك الحرير والبسها
وخذ هذه العشرة دراهم واخرج فى هذه الساعة لتتفرج فى هذا اليوم ولا تقف
هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك فقال لها نور الدين ياأمى أى شئ الخبر فقالت
له العجوز اعلم ياولدى أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة
فى هذا الوقت لاجل أن تزورها وتتبرك بها وتتقرب لها قربانا حلاوة السلامة بسبب
خلاصها من المسلمين وتوفى لها النذور التى نذرتها ان نجاها المسيح ومعها أربعمائة
بنت ماواحدة منهن الا كاملة فى الحسن والجمال ومن جملتهن بنت الوزير وبنات

الامراء وأرباب الدولة وفي هـذه الساعة يحضرن وربما يقع نظرهن عليك في هذه الكنيسة فيقتلنك فعند ذلك أخذ نور الدين من العجوز العشرة دراهم بعد ان لبس ثيابه وخرج الى السوق وصار يتفرج في شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها ثم رجع الى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت الملك قد أقبلت على الكنيسة ومعها أربعمائة بنت نهد أبكار كأنهن الاقمار ومن جملتهن بنت الوزير الاعور وبنات الامراء وأرباب الدولة وهي تمشي بينهن كأنها القمر بين النجوم فلما رآها نور الدين لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال يا مريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادي يا مريم هجمن عليه وجردن بيض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله في تلك الساعة فالتفتت اليه مريم وتأملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات اتركن هذا الشاب فانه مجنون بلا شك لان علامة الجنون لائحة على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحملق عينيه وأشاح بيديه وعوج رجليه وأخرج الزبد من فيه وشدقيه فقالت السيدة مريم أما قلت لكن ان هذا مجنون احضرنه عندي وابعدن عنه حتى أسمع ما يقول فاني أعرف كلام العرب وأنظر حاله وهل داء جنونه يقبل المداواة أم لا فعند ذلك حمله البنات وجئن به بين يديها ثم أبعدن عنه فقالت له هل جئت الى هنا من أجلي وخاطرت بنفسك وعملت نفسك مجنون فقال لها نور الدين يا سيدتي أما سمعت قول الشاعر

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * ما لذة العيش الا للمجانين

هاتوا جنوني وهاتوا من جننت به * فان وفى بجنوني لا تلوموني

فقالت له مريم والله يا نور الدين انك الجاني على نفسك فاني حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولي وتبعت هوى نفسك وانا ما اخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا في المنام وانما هو من باب المشاهدة والعيان لاني رأيت الوزير الاعور فعرفت أنه ما دخل في هذه البلدة الا في طلبي فقال لها نور الدين يا سيدتي مريم نعوذ بالله من زلة العاقل ثم تزايد بنور الدين الحال فانشد هذا المقال

هبوا جناية من زلت به القدم * قد يشمل العبد من ساداته كرم

حسب المسيء بذنب من جنايته * فرط الندامة اذ لا ينفع الندم
فعلت ما يقتضي التاديب معترفا * فاين ما يقتضيه العفو والكرم

ولم يزل نور الدين هو والملكة مريم الزنارية في عتاب يطول شرحه وكل منهما يحكى لصاحبه ما جرى له ويتناشدان الاشعار ودموعهما تجرى على خدودهما شبه الانهار ويتشكيان لبعضهما شدة الهوى وأليم الوجد والجوى الى أن لم يبق لاحدهما قوة على الكلام وقد ولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة مريم حلة خضراء مزركشة بالذهب الاحمر مرصعة بالدر والجوهر فزادتها حسنها وظرف معانيها وقد أجاد من قال فيها

تبدت كبدر التم في الحلل الخضر * مفككة الازرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التي * كويت قلوب العاشقين على الجمر
أنا الفضة البيضاء والذهب الذي * يفك به المأسور من شدة الاسر
فقلت لها ان الصدود أذابني * فقالت أتشكو الى وقلبي من صخر
فقلت لها ان كان قلبك صخرة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما جن الليل أقبلت الملكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقلن لها قد أغلقناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن الى مكان يقال له مكان السيدة مريم العذراء أم النور لان النصارى يزعمون ان روحانيتها وسرها في ذلك المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن في الكنيسة كلها ولما فرغن من زيارتها التفتت السيدة مريم اليهن وقالت لهن اني اريد ان ادخل وحدى في هذه الكنيسة وأتبرك بها فانه حصل لى اشتياق اليها بسبب طول غيبتي في بلاد المسلمين وأما أنتن فحيث فرغتن من الزيارة فنمن حيث شئتن فقلن لها حبا وكرامة افعلى انت ما تريدينه ثم انهن تفرقن عنها في الكنيسة ونمن فعند ذلك استغفلتهن مريم وقامت تفتش على نور الدين فرأته في ناحية جالسا على مقالى الجمر وهو في انتظارها فلما أقبلت عليه قام لها على قدميه وقبل يديها فجلست وأجلسته الى جانبها ثم نزعت ما كان عليها من الحلى والحلل وضمت نور الدين الى صدرها وجعلته في حضنها ولم تزل هى واياه في تقبيل وعناق ونغمات خاق باق وهما يقولان

ما أقصر ليل التلاق وما أطول يوم الفراق وينشدان قول الشاعر

يا ليلة الوصل وبكر الدهر * لانت غرة الليالي الغر
فجئتني بالصبح وقت العصر * هل كنت كحلا في عيون الفجر
أو كنت نوما في عيون الرمد

ليلة الوصال ما أطولها * آخرها مواصل أولها
كحلقة مفرغة ما ان لها * من طرف والحشر أيضا قبلها
فالصب بعد البعث ميت الصد

فبينما هما في هذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة واذا بغلام من الغلمان النفيسة يضرب الناقوس فوق سطح الكنيسة ليقيم من عبادتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر

رأيته يضرب الناقوس قلت له * من علم الظبي ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس أي الضرب يؤلمك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيس

فلما سمعت مريم ضرب الناقوس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحليها فشق ذلك على نور الدين وتكدر قلبه الحزين وسكب العبرات وأنشد هذه الابيات

لا زلت الثم وردخد غض * وأعد ذلك مبالغا في العض
حتى اذا طبنا ونام رقيبنا * وعيونه مالت لنحو الغمض
ضربت نواقيس تنبه أهلها * بمؤذن يدعوا صلاة الفرض
قامت على عجل للبس ثيابها * من خوف نجم رقيبنا المنقض
وتقول ياسؤلي ويا كل المنى * جاء الصباح بوجهه المبيض
اقسمت لو اعطيت ملك ولاية * وبقيت سلطانا شديد القبض
لهدمت اركان الكنائس كلها * وقتلت كل مقسس في الارض

ثم ان السيدة مريم ضمت نور الدين الى صدرها وقبلت خده وقالت له يا نور الدين كم يوم لك في هذه المدينة فقال سبعة ايام فقالت له هل سرت في هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارزها وابوابها التي من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل تعرف طريق صندوق النذر الذي في الكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف ذلك كله اذا كانت الليلة القابلة ومضى ثلث الليل الاول فاذهب في تلك الساعة الى

صندوق النذر وخذ منه ما تريده وتشتهيه وافتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة التى توصل الى البحر فانك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية فمتى رآك الرئيس يمد يده اليك فناوله يدك فانه يطلعك فى السفينة واقعد عنده حتى أجىء اليك والحذر ثم الحذر من أن يلحقك النوم فى تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت من عنده فى ذلك الوقت والحين ونبهت جواريها وسائر البنات من نومهن وأخذتهن وأتت الى باب الكنيسة ودقته ففتحت العجوز الباب فلما طلعت منه رأت الخدم والحشم والبطارقة وقوفا فقدموا لها بغلة فركبتها وأرخوا عليها ناموسية من الحرير وأخذت البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بها الحاويشية وبايديهم السيوف مسلولة وتوجهوا بها الى أن وصلوا الى قصر أبيها هذا ما كان من أمرها ﴿وأما﴾ ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل مختفيا وراء الستارة التى كان مستترا خلفها هو ومريم الى أن طلعت الشمس ودخل الناس فى الكنيسة وكثروا فيها فاختلط بالناس وجاء الى تلك العجوز قيمة الكنيسة فقالت له أين كنت راقدا فى هذه الليلة قال فى محل داخل المدينة كما أمرتينى فقالت له العجوز نعم ما فعلت ولو كنت بت الليلة فى الكنيسة لكانوا قتلوك أقبح قتلة فقال لها نور الدين الحمد لله الذى نجانى من شر هذه الليلة ولم يزل نور الدين يقضى شغله فى الكنيسة الى أن مضى النهار وأقبل الليل بدياجى الاعتكار فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر ثم صبر الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة التى توصل الى البحر وهو يطلب الستر من الله ولم يزل يمشى الى أن وصل الى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وذهب الى البحر فوجد السفينة راسية على شاطئ البحر بجوار الباب ووجد الرئيس شيخا كبيرا ظريفا الا أن لحيته طويلة وهو واقف فى وسطها على رجليه والعشرة رجال واقفون قدامه فناوله نور الدين يده ثم أمرته مريم فاخذه من يده وجذبه من البحر فصار فى وسط السفينة فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم اقلعوا مرساة السفينة من البر وعوموا بنا قبل

أن طلع النهار فقال واحد من العشرة البحرية يا سيدى الرئيس كيف نعوم والملك أخبرنا أنه فى غد يركب السفينة فى هذا البحر ليطلع على ما فيه لانه خائف على ابنته مريم من سراق المسلمين فصاح عليهم الرئيس وقال ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم انكم تخالفونى وتردون كلامى ثم ان الرئيس سل سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على عنقه فخرج السيف يلمع منه فقال له واحد وأى ذنب عمل صاحبنا حتى تضرب رقبته فمد يده الى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم ولم يزل ذلك الرئيس يضرب أعناق البحرية واحدا بعد واحد حتى قتل العشرة ورماهم على شاطئ البحر ثم التفت الى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته وقال له انزل الى المراسى فخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب فى البر وقلع المراسى ثم طلع فى السفينة أسرع من البرق وصار الرئيس يقول له افعل كذا وكذا ودور كذا وكذا وانظر الى النجوم ونور الدين يفعل جميع ما يامره به الرئيس وقلبه خائف مرعوب ثم رفع شراع المركب وسارت بهما فى البحر العجاج المتلاطم بالامواج وقد طاب لهما الريح كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق فى بحر الافكار ولم يزل مستغرقا فى الفكر ولم يعلم بما هو مخبا له فى الغيب وكلما نظر الى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم الجهة التى هو متوجه اليها بل صار مشغولا فى فكر ووسواس الى أن اتضح النهار وطلعت الشمس فعند ذلك نظر نور الدين الى الرئيس فرآه قد أخذ لحيته الطويلة بيده وجذبها فطلعت من موضعها فى يده وتاملها نور الدين فوجدها لحية كانت ملصقة زورا ثم تامل نور الدين فى ذات الرئيس ودقق النظر فيها فاذا هى السيدة مريم معشوقته وكانت قد تحيلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلحيته وأخذت جلدة وجهه وركبته على وجهها فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طار عقله من الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها مرحبا بك يا منيتى وسؤلى وغاية مطلبى ثم ان نور الدين هزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الامل والارب فردد صوته باطيب النغمات وأنشد هذه الابيات

قل لقوم هم لعشقى جهلوا * فى حبيب ما اليه وصلوا

عن غرامي بين قومي فاسألوا * قد حلا نظمي ورق الغزل
في هوى قوم بقلبي نزلوا
ذكرهم عندي يزيل السقما * عن فؤادي ويزيح الالما
زاد شوقي وهيامي عندما * أصبح القلب كئيبا مغرما
وبه في الناس سار المثل
أنا لا أقبل فيهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة
لكن الحب رماني حسرة * أشعلت منه بقلبي جمرة
حرها في كبدي يشتعل
من عجيب قد أباحوا سقمي * مع سهادي طول ليل مظلم
كيف راموا بالتجافي عدمي * واستحلوا في الهوى سفك دمي
وهم في جورهم قد عدلوا
يا ترى من الذي أوصاكم * بالتجافي عن فتى يهواكم
ولعمري والذي أنشاكم * نقل العذال قولا عنكم
كذبوا والله فيما نقلوا
لا أزاح الله عني عللا * لا ولا أشفى لقلبي غللا
يوم أشكو من هواكم مللا * أنا لا أرضى سواكم بدلا
عذبوا قلبي وان شئتم صلوا
لي فؤاد لم يحل عن حبكم * لو يعاني حسرة من صدكم
سخط هذا والرضا من عندكم * ما تشاؤا فافعلوا في عبدكم
هو بالروح لكم لا يبخل

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له من هذه حالته ينبغي أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الانذال وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف باحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الاهوية كلها واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله يا سيدتي لو أطلت على هذا الامر لمت من شدة الخوف والفزع خصوصا مع نار الوجد والاشتياق

وألم الفراق فضحكت من كلامه وقامت من وقتها وساعتها وأخرجت شيأ من المأكول والمشروب فأكلا وشربا وتلذذا وطربا وبعد ذلك أخرجت من اليواقيت والجواهر وأصناف المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة مما خف حمله وغلا ثمنه من الذي جاءت به من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح كل ذلك والريح معتدل والمركب سائرة ولم يزالا سائرين حتى أشرفا على مدينة اسكندرية وشاهدوا أعلامها القوية فلما وصلا الى المينا طلع نور الدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها هناك وأخذ معه شيأ من الذخائر التي جاءت بها مريم وقال لها يا سيدتي أقعدي في السفينة حتى أطلع بك الى اسكندرية مثل ما أحب وأشتهي فقالت له ولكن ينبغي أن يكون بسرعة لان التراخي في الامور يورث الندامة فقعدت مريم في السفينة وتوجه نور الدين الى بيت العطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقابا وازارا وما تحتاج اليه كعادة نساء اسكندرية ولم يعلم بما لم يكن له في حساب من تصرفات الدهر أبي العجب العجاب هذا ما كان من أمر نور الدين ومريم الزنارية (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افرنجة فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها فسأل عنها من جواريها وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت الى الكنيسة وبعد ذلك لم نعرف لها خبرا فبينما الملك يتحدث مع الجواري والخدم في تلك الساعة واذا بصرختين عظيمتين تحت القصر قد دوى لهما المكان فقال الملك ما الخبر فقالوا له أيها الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا باب الخوخة الذي في الكنيسة من جهة البحر مفتوحا والاسير الذي كان يخدم الكنيسة قد فقد فقال الملك ان كانت سفينتي في البحر قد فقدت فبنتي مريم فيها بلا شك ولا ريب ثم ان الملك دعا رئيس المينا وقال له وحق المسيح والدين الصحيح ان لم تلحق سفينتي في هذه الساعة بعسكر وتأتيني بمن فيها الا قتلتك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب العجوز من الكنيسة وقال لها ما كنت تسمعين من الاسير الذي كان عندك في شان بلاده من أي البلاد هو فقالت له كان يقول أنا من مدينة اسكندرية فلما سمع الرئيس

كلام العجوز رجع من وقته وساعته الى المينا وصاح على البحرية وقال لهم تجهزوا وحلوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم يزالوا مسافرين ليلا ونهارا حتى أشرفوا على مدينة اسكندرية فى الساعة التى طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزير الاعور الاعرج الذى كان اشتراها من نور الدين فرأوا السفينة مربوطة فعرفوها فربطوا مركبهم بعيدا عنها وأتوا اليها فى مركب صغيرة تعوم على ذراعين من الماء وفى تلك المركب مائة مقاتل ومعهم الوزير الاعور الاعرج لانه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا ولصا محتالا ولم يزالوا سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فهجموا عليها وحملوا حملة واحدة فلم يجدوا فيها أحدا الا السيدة مريم فاخذوها هى والسفينة التى هى فيها بعد أن طلعوا على الشاطئ وأخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مركبهم وقد فازوا ببغيتهم ومطلبهم من غير قتال ونزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد طاب لهم الريح ولم يزالوا مسافرين على حماية الى أن وصلوا الى مدينة افرنجة وطلعوا بالسيدة مريم الى أبيها وهو فى تخت مملكته فلما نظر اليها أبوها قال لها ويلك يا خائنة كيف تركت دين الآباء والاجداد وحصن المسيح الذى عليه الاعتماد واتبعت دين الاسلام الذى قام بالسيف على رغم الصليب والاصنام فقالت له مريم أنا مالى ذنب لانى خرجت فى الليل الى الكنيسة لازور السيدة مريم وأتبرك بها فبينما أنا فى غفلة واذا بسراق المسلمين قد هجموا على وسدوا فمى وشدوا وثاقى ووضعونى فى السفينة وسافروا بى الى بلادهم فخادعتهم وتكلمت معهم فى دينهم الى أن فكوا وثاقى وما صدقت أن رجالك أدركونى وخلصونى وأنا وحق المسيح والدين الصحيح قد فرحت بفكاكى من أيديهم غاية الفرح واتسع صدرى لذلك وانشرح حيث خلصت من أسرهم فقال لها أبوها كذبت يا فاجرة يا عاهرة وحق محكم الانجيل ومنزل التحريم والتحليل لابد لى من أن أقتلك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة أما كفاك الذى فعلتيه فى الاول ودخل علينا محالك حتى رجعت اليه بهتانك واحتيالك ثم ان الملك أمر بقتلها وصلبها على باب القصر فدخل عليه الوزير الاعور فى تلك الساعة وكان مغرما بها قديما وقال له يا ملك لا تقتلها

وزوجني بها وأنا أحرص عليها غاية الحرص وما أدخل عليها حتى أبني لها قصرا من الحجر الجلمود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود عليه واذا فرغت من بنيانه ذبحت على بابه أربعين من المسلمين وأجعلهم قربانا للمسيح عني وعنها فانعم عليه الملك بزواجها وأذن للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يكالوا عليها له فكالوا عليها للوزير الاعور وأذن أن يشرعوا في بنيان قصر مشيد يليق بها فشرعت العمال في العمل * هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان من أمر نور الدين والرجل العطار فان نور الدين لما توجه الى العطار استعار من زوجته ازارا ونقابا كنساء اسكندرية ورجع بهما الى البحر وقصد محل السفينة التي فيها مريم فوجد الجو قفرا والمزار بعيدا فصار قلبه حزينا فبكى بدمع متواتر وأنشد قول الشاعر

سرى طيف سعدى طارقا فاستفزني * سحيرا وصحبي في الفلاة رقود
فلما انتبهنا للخيال الذي سرى * أرى الجو قفرا والمزار بعيد

فمشى نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمينا وشمالا فرأى ناسا مجتمعين على الشاطئ وهم يقولون يا مسلمون ما بقي لمدينة اسكندرية حرمة حتى صار الافرنج يدخلونها ويختطفون من فيها ويعودون الى بلادهم على غاية الامان ولا يخرج وراءهم أحد من المسلمين ولا من العساكر المغازين فقال لهم نور الدين ما الخبر فقالوا له ان مركبا من مراكب الافرنج فيها عساكر قد هجموا في هذه الساعة على المينا وأخذوا سفينة كانت راسية هناك بمن فيها وراحوا على حماية الى بلادهم فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا عليه فلما أفاق سألوه عن قصته فاخبرهم بخبره من الاول الى الآخر فلما فهموا اخبره صار كل منهم يشتمه ويسبه ويقول له لاي شيء فعلت هذا ما تخرجها الا بازار ونقاب وصار كل واحد من الناس يقول له كلاما مؤلما ومنهم من يقول خلوه في حاله يكفيه ما جرى له وصار كل واحد يوجعه بالكلام ويرميه بسهام الملام حتى وقع مغشيا عليه فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة واذا بصاحبه العطار قد أقبل فرأى الناس مجتمعين فمشى جهتهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدا بينهم وهو مغشي عليه فقعد عند رأسه ونبهه

فلما أفاق قال له يا ولدي ما هذا الحال الذي أنت فيه فقال له يا عم ان جاريتي التي
ذهبت مني قد جئت بها من مدينة أبيها في مركب وقاسيت ما قاسيت في المجيء بها
فلما وصلت بها الى هذه المدينة ربطت السفينة في البر وتركت الجارية فيها
وذهبت الى منزلك وأخذت من زوجتك مصالح للجارية لاخرجها بها من السفينة
الى المدينة فجاء الافرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها وراحوا على حماية حتى وصلوا
الى مركبهم فلما سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تأسف على نور الدين
أسفا عظيما وحزن عليه حزنا جسيما وقال له يا ولدي لاي شيء ما أخرجتها من
السفينة الى المدينة من غير ازار ونقاب ولكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام قم
يا ولدي واطلع معي الى المدينة لعل الله يرزقك بجارية أحسن منها فتتسلى بها عنها
واحمد الله على عدم خسارتك فيها اشيا بل حصل لك الربح فيها واعلم يا ولدي أن
الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله يا عم اني ما اقدر أن
أسلاها أبدا ولا أترك طلبها ولو سقيت من أجلها كأس الردى فقال له العطار
يا ولدي وأي شيء في ضميرك تريد أن تفعله فقال له نويت أن أرجع الى بلادهم
وأدخل مدينة افرنجة وأخاطر بنفسي فاما علها واما لها فقال له يا ولدي ان في
الامثال السائرة ما كل مرة تسلم الجرة وان كانوا ما فعلوا بك في المرة الاولى شيا ربما
يقتلونك هذه المرة لاسيما وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين يا عم دعني أسافر
وأقتل من أجلها صبرا وكان بمصادفة القدر مركب راسية في المينا مجهزة للسفر
وركابها قد قضت جميع أشغالها وفي تلك الساعة قلعوا أوتادها فنزل فيها نور
الدين وسافرت تلك المركب مدة أيام وقد طاب لركابها الوقت والريح فبينما هم
سائرون واذا بمركب من مراكب الافرنج دائرة في البحر العجاج لا يرون مركبا الا
ويأخذونها خوفا على بنت الملك من سراق المسلمين واذا أخذوا مركبا يوصلون
جميع من فيها الى ملك افرنجة فيذبحهم ويوفي بهم نذره الذي كان نذره من أجل
ابنته فرأوا المركب التي فيها نور الدين فأخذوها وأسروا كل من كان فيها وأتوا
بهم الى الملك والد السيدة مريم فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من
المسلمين فأمر بذبحهم في الوقت والساعة ومن جملتهم نور الدين فذبحوهم كلهم ولم

يبق منهم الا نور الدين وكان الجلاد أخره شفقة عليه لصغر سنه ورشاقة قده فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة فقال له أما أنت نور الدين الذى كنت عندنا فى المرة الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمى نور الدين وانما اسمى ابراهيم فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذى وهبتك للعجوز القيمة على الكنيسة لتساعدها فى خدمة الكنيسه فقال له نور الدين يا مولاى أنا اسمى ابراهيم فقال له الملك ان العجوز قيمة الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو غيره فبينما هم فى الكلام واذا بالوزير الاعور الذى تزوج مريم قد دخل فى تلك الساعة وقبل الارض بين يدى الملك وقال له أيها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بنيانه وأنت تعرف أنى نذرت للمسيح اذا فرغت من بنائه أن أذبح على بابه أربعين من المسلمين وقد أتيتك لآخذ من عندك أربعين مسلما فاذبحهم وأوفى بهم نذر المسيح ويكونون فى ذمتى على سبيل العوض ومتى جاءنى أسارى أعطيتك بدلهم فقال الملك وحق المسيح ما بقى عندى غير هذا الاسير وأشار الى نور الدين وقال له خذه واذبحه فى هذه الساعة حتى أرسل اليك البقية اذا جاءنى أسارى من المسلمين فعند ذلك قام الوزير الاعور وأخذ نور الدين ومضى به الى القصر ليذبحه على عتبة بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير قد بقى علينا من الدهان شغل يومين فاصبر علينا واخر ذبح هذا الاسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن يأتى اليك بقية الاربعين فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفى بنذرك فى يوم واحد فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين فأخذوه مقيدا جائعا عطشانا يتحسر على نفسه وقد نظر الموت بعينه واتفق بالامر المقدر والقضاء المبرم أنه كان للملك حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والآخر لاحق وكانت الملوك الاكاسرة تحسرة تحصيل واحد منهما وكان أحدهما أشهب نقيا والآخر أدهم كالليل الحالك وكانت ملوك الجزائر جميعا يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نعطيه جميع ما طلبه من الذهب الاحمر والدر والجوهر * فلم يقدر أحد على سرقة واحد من هذين الحصانين فحصل لاحدهما مرض فى عينيه فاحضر الملك جميع البياطرة لدوائه فعجزوا عنه كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذى تزوج بنته مريم فرآه مهموما

من قبل ذلك الحصان فاراد أن يزيل همه فقال أيها الملك اعطنى هذا الحصان وأنا أداويه لك فاعطاه له فنقله فى الاصطبل الذى فيه نور الدين محبوس فلما فارق هذا الحصان أخاه صاح صيحة عظيمة وصهل حتى أزعج الناس من الصياح فعرف انه ماحصل منه هذا الصياح الا لفراقه لاخيه فذهب وأعلم الملك بذلك فلما تحقق الملك كلامه قال اذا كان ذلك حيوانا ولم يصبر على فراق أخيه فكيف بذوى العقول ثم أمر الغلمان أن ينقلوا الحصان عند أخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم قولوا للوزير ان الملك يقول لك ان الحصانين انعام منه عليك لاجل خاطر ابنته مريم فبينما نور الدين نائما فى الاصطبل وهو مقيد مكبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على عينى أحدهما غشاوة وكان عنده بعض معرفة باحوال الخيل وممارسة دوائها فقال فى نفسه هذا والله وقت فرصتى فاقوم وأكذب على الوزير وأقول له أداوى هذا الحصان وأعمل له شيأ يتلف عينيه فيقتلنى وأستريح من هذه الحياة الذميمة ثم ان نور الدين انتظر الوزير الى أن دخل الاصطبل ينظر الى الحصانين فلما دخل قال له نور الدين يامولاى أى شئ يكون لى عليك اذا أنا داويت لك هذا الحصان وأعمل له شيأ يطيب عينيه فقال له الوزير وحياة رأسى ان داويته أعتقك من هذا الذبح وأخليك تتمنى على فقال يامولاى مر بفك يدى فامر الوزير باطلاقه فنهض نور الدين وأخذ زجاجا بكرا وسحقه وأخذ جيرا بلا طفى وخلطه بماء البصل ثم وضع الجميع فى عينى الحصان وربطهما وقال فى نفسه الآن تغور عيناه فيقتلنى وأستريح من هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس الهم وتضرع الى الله تعالى وقال يارب فى علمك مايغنى عن السؤال فلما أصبح الصباح وأشرقت الشمس على الروابى والبطاح جاء الوزير الى الاصطبل وأزال الرباط عن عينى الحصان ونظر اليهما فرآهما أحسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتاح فقال له الوزير يامسلم مارأيت فى الدنيا مثلك فى حسن معرفتك وحق المسيح والدين الصحيح لقد أعجبتنى غاية الاعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل بيطار فى بلادنا حتى تحير فيه ذوو الالباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه حلة سنية وجعله ناظرا على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه فى طبقة

على الاصطبل وكان فى القصر الجديد الذى بناه للسيدة مريم شباك مطل على بيت الوزير وعلى الطبقة التى فيها نور الدين فقعد نور الدين مدة أيام يأكل ويشرب ويتلذذ ويطرب ويأمر وينهى على خدمة الخيل وكل من غاب منهم ولم يعلق على الخيل المربوطة على الطوالة التى فيها خدمته يرميه ويضربه ضربا شديدا ويضع فى رجليه القيد الحديد وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح ولم يدر ما يؤول أمره اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى الحصانين ويمسحهما بيده لما يعلم من عزتهما عند الوزير ومحبته لهما وكان لذلك الوزير بنت بكر فى غاية الجمال كأنها غزال شارد أو غصن مائد فاتفق أنها كانت جالسة ذات يوم من الايام فى الشباك المطل على بيت الوزير وعلى المكان الذى فيه نور الدين اذ سمعت نور الدين يغنى ويسلى نفسه على المشقات بانشاد هذه الابيات

* ياعاذلا أصبح فى ذاته * منعما يزهو بلذاته
لو عضك الدهر بآفاته * لقلت من ذوق مراراته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
لكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوره
فلا تلم من حار فى أمره * وقال من فرط صباباته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
كن عاذر العشاق فى حالهم * ولا تكن عونا لعذالهم
اياك أن تنشد فى حبهم * مجرعا من مر لوعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى الفؤاد
لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعانى لمقاماته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
لم يدر ما العشق وماذله * الا الذى أسقمه طوله
وضاع منه فى الهوى عقله * وشربه من مر جرعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته

كم عين صب فى الدجى أسهرا * واحرم الجفن لذيذ الكرى
وكم أسال دمعه أنهرا * تجرى على الخد بلوعاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
كم فى الورى من مغرم مستهام * سهران من وجد بعيد المنام
ألبسه ثوب الضنا والسقام * من قد نفى عنه مناماته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحرارته
كم قل صبرى وبرى أعظمى * وسال دمعى منه كالعندم
من اهيف قد زاد فيه سقمى * قد كان حلوا فى مذاقاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
مسكين من فى الناس مثلى عشق * وبات فى جنح الليالى أرق
ان عام فى بحر التجافى غرق * يشكو من العشق وزفراته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
من ذا الذى بالعشق لم يبتل * ومن نجا من كيده الاسهل
ومن يعيش منه بعيش خلى * وأين من فاز براحاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحراراته
يارب دبر من به قد بلى * وأكفله انعم أنت من كافل
وارزقه منك بالثبات الجلى * والطف به فى كل آفاته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبى بحرارته

فلما فرغ نور الدين من كلامه وخلص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير فى نفسها وحق المسيح والدين الصحيح ان هذا المسلم شاب مليح ولكنه لاشك أنه عاشق مفارق فيا ترى معشوق هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ما عنده أم لا فان كان معشوقه مليحا مثله يحق له اسالة العبرات وشكوى الصبابات وان كان غير مليح فقد ضيع عمره فى الحسرات وحرم طعم اللذات وكانت مريم الزناريه زوجة الوزير محبوبة نور الدين قد نقلت الى القصر الجديد أمس ذلك اليوم وعلمت منها بنت الوزير ضيق الصدر فعزمت على ان تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا

الغلام وما سمعت منه من النظام فما استتمت الفكر في هذا الكلام حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها الاجل أن تؤانسها بالحديث فذهبت اليها فرأت صدرها ضيقا ودموعها جارية على خدها وهي تبكي البكاء الشديد الذي ماعليه من مزيد وتكفكف العبرات وتنشد هذه الابيات

مضى عمري وعمر الوجد باقي * وصدري ضاق من فرط اشتياقي
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عود أيام التلاقي
* لينتظم الوصال على اتساق *
أقلوا اللوم عن مسلوب قلب * نحيل الجسم من شوق وكرب
ولا ترموا حشاه بسهم عتب * فما في الكون أشقى من محب
* فمر العشق حلو في المذاق *

فقالت بنت الوزير للسيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتتة الفكر فلما سمعت السيدة مريم كلام بنت الوزير تذكرت مافات من عظيم اللذات وانشدت هذه الابيات

ساصبر توطينا على هجر صاحبي * وأرسل در الدمع نثرا على نثر
عسى فرج يأتي به الله انه * طوى كل يسر تحت أجنحة العسر

فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة لا تضيقي صدرا وقومي معي في هذه الساعة الى شباك القصر فان عندنا في الاصطبل شابا مليحا رشيق القوام حلو الكلام كانه عاشق مفارق فقالت لها السيدة مريم باي علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة عرفت ذلك بانشاده القصائد والاشعار آناء الليل وأطراف النهار فقالت السيدة مريم في نفسها ان كان قول بنت الوزير بيقين فهذه صفات الكئب المسكين علي نور الدين فياهل ترى هو ذلك الشاب الذي ذكرته بنت الوزير ثم ان السيدة مريم زادبها العشق والهيام والوجد والغرام فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير الى الشباك ونظرت منه فرأته محبوبها وسيدها نور الدين ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبته اياها ومن نار الوجد وألم الفراق والوله والاشتياق قد زاد

به النحول وهو ينشد ويقول

القلب مملوك وعيني جاريه * ليس لها سحابة مجاريه
بين بكائي وسهادي والجوى * والنوح والحزن على أحبابيه
واحرقتي واحسرتي والوعني * تكاملت أعدادها ثمانيه
وتابعتها خمسة في خمسة * ألا قفوا واستمعوا مقاليه
ذكر وفكر وزفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليه
محنة وغربة وصبوة * ولهفة وفرحة ترانيه
قل اصطباري واحتمالي للهوى * لما نأى صبري دنت آجاليه
قد زاد في قلبي تباريح الجوى * يا سائلا عن نار قلبي ماهيه
ما بال دمعي موقدا في مهجتي * فنار قلبي لا تزال حاميه
أصبحت في طوفان دمعي غارقا * ومن لظى هذا الهوى في هاويه

فلما رأت السيدة مريم سيدها علي نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نظمه تحققت أنه هو ولكن كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسيح والدين الصحيح ما كنت أحسب أن عندك خبرا يضيق صدري ثم نهضت لوقتها وساعتها وقامت من الشباك ورجعت الى مكانها ومضت بنت الوزير الى حالها ثم صبرت السيدة مريم برهة من الزمان ورجعت الى الشباك وجلست فيه وصارت تنظر الى سيدها نور الدين وتتامل في لطفه ورقة معانيه فرأته كأنه بدر في ليلة أربعة عشر لكنه دائم الحسرات جاري العبرات وقد تذكر ما فات فانشد هذه الابيات

أملت وصل أحبتي ما نلته * أبدا ومر العيش قد واصلته
دمعي يحاكي البحر في جريانه * واذا رأيت عواذلي كفكفته
آه على داع دعى بفراقنا * لو نلت منه لسانه لقطعته
لا عتب للايام في أفعالها * مزجت بصرف المر ما جرعته
فلمن أسير الى سواكم قاصدا * والقلب في ساحاتكم خلفته
من منصفي من ظالم متحكم * يزداد ظلما كلما حكمته

ملكته روحى ليحفظ ملكه * فأضاعنى وأضاع ماملكته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أعطى وصولا بالذى أنفقته
ياأيها الرشا المسلم بمهجتى * يكفى من الهجران ماقدذقته
أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبرى فرقته
أحللته قلبى فحل به البلا * انى لراض بالذى أحللته
وجرت دموعى مثل بحر زاخر * لو كنت أعرف مسلكا اسلكته
وخشيت خوفا أن أموت بحسرة * ويفوت منى كل ماأملته

فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفارق انشاد هذه الاشعار حصل عندها من كلامه اقشعرار فافاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين

ياليت من أهوى فلما لقيته * ذهلت فلم أملك لسانا ولا طرفا
وكنت معدا للعتاب دفاترا * فلما اجتمعنا ماالقيت ولا حرفا

فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه نغمة سيدتى مريم الزنارية بلاشك ولاريب ولارجم غيب فياترى هل ظنى صحيح وانها هى أوغيرها ثم ان نور الدين زادت به الحسرات فناوه وأنشد هذه الابيات

لما رآنى لائمى فى الهوى * صادفت حبى فى مكان رحيب
ولم أفه بالعتب عند اللقا * ورب عتب فيه برء الكئيب
فقال ماهذا السكوت الذى * صدك عن هذا الجواب المصيب
فقلت يامن قدغدا جاهلا * بحال أهل العشق كالمستريب
علامة العاشق فى عشقه * سكوته عند لقاء الحبيب

فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواة وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورحمته وبركاته وأخبرك ان الجارية مريم تسلم عليك * وهى كثيرة الشوق اليك * وهذه مراسلتها اليك * فساعة وقوع هذه الورقة بين يديك * انهض من وقتك وساعتك واهتم بما تريده منك غاية الاهتمام والحذر كل الحذر من المخالفة ومن أن تنام * فاذامضى ثلث الليل الاول فان تلك الساعة من أسعد الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الاشد الحصانين وتخرج بهما

خارج المدينة وكل من قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهما فاذا قالت ذلك لا يعذلك أحد فان أهل هذه المدينة واثقون بقفل جميع الابواب وانتظرني حتى أجيء اليك ثم ان السيدة مريم لفت الورقة في منديل حرير ورمتها الى نور الدين من الشباك فاخذها وقراها وفهم ما فيها وعرف انها بخط السيدة مريم فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل له معها من طيب الوصال فاسال دمع العينين وأنشد هذين البيتين

أتاني كتاب منكم جنح ليلة * فهيجني شوقا اليكم وأبراني
وذكرني أنسا مضى بوصالكم * فسبحان رب بالتفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما جن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل ثلثه الاول ثم قام من وقته وساعته الى الحصانين ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج وخرج من باب الاصطبل وقفل الباب وسار بهما الى باب المدينة وجلس ينتظر السيدة مريم هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة مريم فانها ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معد لها في ذلك القصر فوجدت الوزير الاعور جالسا في ذلك المجلس متكئا على مخدة من ريش النعام وهو مستح أن يمد يده اليها أو يخاطبها فلما رأته ناجت ربها في قلبها وقالت اللهم لا تبلغه مني أربا ولا تحكم علي بالنجاسة بعد الطهارة ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست في جانبه ولاطفته وقالت له يا سيدي ما هذا الاعراض عنا أهل هو منك تيه ودلال علينا ولكن صاحب المثل السائر يقول اذا بار السلام سلمت القعود على القيام فان كنت يا سيدي الوزير ما تجيء عندي وتخاطبني أجيء أنا عندك وأخاطبك فقال لها الوزير الفضل والجميل لك يا ملكة الديار الافرنجيه والبلاد الروميه وهل أنا الا من بعض خدامك وأقل غلمانك وانما أنا مستح أن أقدم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الملكة العظيمة ووجهي منك في الارض فقالت له دعنا من هذا الكلام وأتنا بالمأكل والمشرب وهيئ لنا أباريق المدام فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدمه وأمرهم باحضار المأكل والمشرب فقدموا له سفرة فيها ما درج وطار وسبح في البحار من سمان وأفراخ الحمام ورضيع الضان

وأوز سمين ودجاج محمر ومن غالب أنواع الالوان فمدت السيدة مريم يدها الى السفر وأكلت وصارت تلقم الوزير وتقبله فى فمه ومازالا يأكلان حتى اكتفيا من الاكل ثم غسلا ايديهما وبعد ذلك رفعت الخدام سفرة الطعام واحضروا سفرة المدام فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه وزادت فى تعليل مزاجه أكثر مما كان يكفيه حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما غاب عقله عن الصواب وتمكن منه الشراب مدت يدها الى جيبها واخرجت منه قرصا من البنج البكر المغربى الذى اذا شم منه الفيل أدنى رائحة نام جملة من الايام وكانت أعدته لهذه الساعة ثم غافلت الوزير وفركته فى القدح وملأته وأعطته اياه فطار عقله من الفرح وما صدق انها تناوله اياه فتناول القدح وشربه فما استقر فى جوفه حتى خر صريعا على الارض فى الحال فقامت السيدة مريم على قدميها وعمدت الى خرجين كبيرين وملأتهما مما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر واليواقيت وأصناف المعادن الثمينة ثم حملت معها شيئا من المأكل والمشرب ولبست آلة الحرب والكفاح * من سائر أنواع السلاح وأخذت معها لنور الدين ما يسر من الملابس الملوكية الفاخرة وأهبة السلاح الفاهرة ثم انها حملت الخرجين على أكتافها فرحة مما أصابته من حصول الارب والمسير صحبة محبوبها الى بلاد العرب * وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت الى نور الدين هذا ما كان من أمر مريم ﴿وأما﴾ ما كان من أمر نور الدين * العاشق الحزين فانه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين فى يده فارسل الله عز وجل عليه النوم فنام وسبحان من لا ينام وكانت ملوك الجزائر فى ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة على سرقة هذين الحصانين أو أحدهما وكان فى تلك الايام عبد اسود تربى بالجزائر يعرف بسرقة الخيل فصارت ملوك الافرنج يرشونه بمال كثير لاجل أن يسرق الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين يعطوه جائزة كاملة ويخلعوا عليه خلعا سنية وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور فى مدينة افرنجة وهو مختف فيها فلم يقدر على أخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبهما للوزير الاعور ونقلهما الى الاصطبل فرح العبد فرحا شديدا وطمع فى أخذهما وقال وحق المسيح الآن اطمأننت على سرقتهما ثم ان العبد خرج فى تلك الليلة قاصدا ذلك الاصطبل ليسرق الحصانين

فبينما هو ماش اذلاحت منه التفاتة فرأى شخصا نائما وهو نور الدين ومقاود الحصانين فى يده فعرفهما وتقدم اليه ونزع المقاود من رؤسهما ومشى قليلا وأراد أن يركب واحدا ويسوق الآخر قدامه واذا بالسيدة مريم قد اقبلت وهى حاملة للخرجين على كتفها فظنت أن العبد نور الدين فناولته أحد الخرجين فوضعه على الحصان ثم ناولته الثانى فوضعه على الحصان الآخر وهو ساكت وهى تظن أنه نور الدين ثم انها خرجت من باب المدينة والعبد ساكت فقالت له ياسيدى نور الدين مالك ساكت فالتفت العبد اليها وهو مغضب وقال لها أى شئ تقولين ياجارية فسمعت بربرة العبد فعرفت انها غير لغة نور الدين فرفعت رأسها اليه ونظرته فوجدت له مناخير كالابريق فلما نظرته صار الضيا فى وجهها ظلاما فقالت له من تكون ياشيخ بنى حام وما اسمك بين الانام فقال لها يابنت اللئام أنا اسمى مسعود سراق الخيل والناس نيام فما ردت عليه بشئ من الكلام بل جردت من وقتها السيف وضربته على عاتقه فطلع يلمع من علائقه فوقع صريعا على الارض يتخبط فى دمه وعجل الله بروحه الى النار و بئس القرار فعند ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدا منهما وقبضت على الآخر بيدها ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين فلقيته راقدا فى المكان الذى وعدته بالاجتماع فيه والمقاود فى يده وهو نائم يخط فى نومه ولم يعرف يديه من رجليه فنزلت عن ظهر الحصان ولكزته بيدها فانتبه من نومه مرعوبا وقال لها ياسيدتى الحمد لله على مجيئك سالمة فقالت له قم اركب هذا الحصان وأنت ساكت فقام وركب الحصان وركبت السيدة مريم الحصان الثانى وخرجا من المدينة وسارا قليلا وبعد ذلك التفتت مريم الى نور الدين وقالت له أما قلت لك لاتنم فانه لا أفلح من ينام فقال ياسيدتى أنا مانمت الا من برد فؤادى بميعادك وأى شئ جرى ياسيدتى فاخبرته بحكاية العبد من المبتدا الى المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدا فى اسراع السير وقد سلما أمرهما الى اللطيف الخبير وصارا يتحدثان حتى وصلا الى العبد الذى قتلته السيدة مريم فرآه مرميا فى التراب كأنه عفريت فقالت مريم لنور الدين

انزل جرده من ثيابه وخلسه لاحه فقال لها ياسيدتي والله أنا لا أقدر أن أنزل عن ظهر الحصان ولا أقف عنده ولا أتقرب منه وتعجب نور الدين من خلقته وشكر السيدة مريم على فعلها وتعجب من شجاعتها وقوة قلبها ثم سارا ولم يزالا سائرين سيرا حثيثا بقية الليل الى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وانتشرت الشمس على الروابي والبطاح فوصلا الى مرج أفيح فيه الغزلان تمرح وقد اخضرت منه الجوانب وتشكلت فيه الاثمار من كل جانب وأزهاره كبطون الحياة والطيور على غصون أشجاره عاكفات يغردن بحلاوة الاصوات باختلاف اللغات وجداوله تجري مختلفة الصفات كما قال فيه الشاعر وأجاد ووفى بالمراد

وقانا لفحة الرمضاء واد * وقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا * حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظما زلالا * ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

(وكما قال الآخر)

واذا ترنم طيره وغديره * يشتاقه الولهان في الاسحار
فكأنه الفردوس في أفنانه * ظل وفاكهة وماء جاري

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هي ونور الدين ليستريحا في ذلك الوادي فلما نزلا به أكلا من أثماره وشربا من أنهاره وأطلقا الحصانين يأكلان في المرعى فصارا يأكلان ويشربان من ذلك الوادي وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذكران حكايتهما وما جرى لهما وكل منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق وما قاساه من البعد والاشتياق فبينما هما كذلك واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار وسمعا صهيل الخيل وقعقعة السلاح وكان السبب في ذلك ان الملك لما زوج ابنته للوزير ودخل عليها في تلك الليلة وأصبح الصباح وأراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك في بناتهم فقام وأخذ أقمشة من الحرير ونثر الذهب والفضة ليتخاطفها الخدمة والمواشط ولم يزل الملك يتمشى هو وبعض الغلمان الى ان وصل

الى القصر الجديد وطلع فيه فوجد الوزير مرميا على الفراش لم يعرف رأسه من رجليه فالتفت الملك فى القصر يمينا وشمالا فلم ير ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله وأمر باحضار الماء المعين والخل البكر والكندر فلما أحضر واله ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هزه فخرج البنج من جوفه كقطع الجبن ثم ان الملك سعط الوزير بذلك ثانى مرة فانتبه فساله عن حاله وعن حال ابنته مريم فقال له أيها الملك الاعظم لا علم لى بها غير أنها سقتنى قدحا من الخمر بيدها فمن ذلك الوقت ما عرفت روحى الا فى هذه الساعة ولا أعلم ما كان من أمرها فلما سمع الملك كلام الوزير صار الضيا فى وجهه ظلاما وجرد السيف من قرابه وضرب به الوزير على رأسه فخرج يلمع من أضراسه ثم ان الملك أرسل من وقته وساعته الى الغلمان والسياس فلما حضروا طلب منهم الحصانين فقالوا له أيها الملك ان الحصانين فقدا فى هذه الليلة وكبيرنا فقد معهما أيضا فاننا لما أصبحنا وجدنا الابواب كلها مفتحة فقال الملك وحق دينى وما يعتقده يقينى ما أخذ الحصانين الا ابنتى هى والاسير الذى كان يخدم الكنيسة وكان قد أخذها فى المرة الاولى وعرفته حق المعرفة ولم يخلصه من يدى الا هذا الكاب الوزير الاعور وقد جوزى بفعله فلا رحم الله عظامه ثم ان الملك قام من وقته وساعته ودعا باولاده الثلاثة وكانوا ابطالا اشجعانا كل واحد منهم يقوم بالف فارس فى حومة الميدان ومقام الضرب والطعان فصاح الملك عليهم وأمرهم بالركوب فركبوا وركب الملك بجملتهم مع خواص بطارقته وأرباب دولته وأكابرهم وساروا يتبعون آثارهما فلحقوهما فى ذلك الوادى فلما رأتهم مريم نهضت وركبت جوادها وتقلدت بسيفها وحملت آلة سلاحها وقالت لنور الدين ما حالك وكيف قلبك فى القتال والحرب والنزال فقال لها ان ثباتى فى النزال مثل ثبات الوتد فى النخال وأنشد يقول

يا مريم اطرحى أليم عتابى * لا تقصدى قتلى وطول عذابى
من أين لى انى أكون محاربا * انى لافزع من نعيق غراب
واذا نظرت الفار أفزع خيفة * وأبول من خوفى على أثوابى
انا لا أحب الطعن الا خلوة * والكس يعرف سطوة الازباب
هذا هو الرأى السديد وما يرى * من دون هذا الرأى غير صواب

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والنظام أظهرت له الضحك والابتسام وقالت له ياسيدى نور الدين الهمام الزم مكانك وأنا أكفيك شرهم ولو كانوا اعداد الرمل ثم انها قامت من وقتها وساعتها وتهيأت للقتال وأطلقت من يدها طرف العنان وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها كأنه الريح الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها وأفرس أهل عصرها وأوانها لان اباها علمها الركوب على ظهور الخيل وخوض بحار الحرب فى ظلام الليل وقالت لنور الدين اركب جوادك وكن خلف ظهرى واذا انهزمنا فاحرص على نفسك من الوقوع فان جوادك ما يلحقه لاحق فلما نظر الملك الى ابنته مريم عرفها غاية المعرفة والتفت الى ولده الاكبر وقال له يابرطوط ياملقب برأس القلوط ان هذه أختك مريم لاشك فيها ولاريب قد حملت وطلبت حربنا وقتالنا فابرز اليها واحمل عليها ولكن وحق المسيح والدين الصحيح انك ان ظفرت بها لاتقتلها حتى تعرض عليها دين النصارى فان رجعت الى دينها القديم فأرجع بها أسيرة وان لم ترجع اليه فاقتلها أقبح قتلة ومثل بها أشنع مثلة وكذلك هذا الملعون الذى معها مثل به أقبح مثلة فقال له برطوط السمع والطاعة ثم برز الى أخته مريم من وقته وساعته وحمل عليها فلاقته وحملت عليه ودنت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يامريم أما يكفى ما جرى منك حيث تركت دين الاباء والاجداد واتبعت دين السواحين فى البلاد يعنى دين الاسلام ثم قال وحق المسيح والدين الصحيح ان لم ترجعى الى دين آبائك وأجدادك من الملوك وتسلكى فيه احسن السلوك والا اقتلك اشر قتلة وأمثل بك أقبح مثلة فضحكت مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيهات أن يعود مافات أو يعيش من مات بل اجرعك أشد الحسرات أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذى عم نفعه وهداه فانه هو الدين الحق فلا أترك الهدى ولو سقيت كؤس الردى فلما سمع الملعون برطوط من أخته هذا الكلام صار الضيا فى وجهه كالظلام وعظم ذلك عليه وكبر لديه فالتهب بينهما القتال وغاص الاثنان فى الاودية العراض الطوال وصبرا على الشدائد والاهوال وشخصت لهما الابصار فاخذها الانبهار

ثم تحاولا مليا واعتركا طويلا وصار برطوط كلما يفتح لاخته مريم بابا من الحرب تبطله عليه وتسده بحسن صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفتها وفروسيتها ولم يكن لذور الدين شغل الا التضرع والابتهال لانه لا طاقة له فى النزال ولا مقاومة الابطال فى الحرب والقتال ولم تزل السيدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة حتى انعقدت على رؤسهما الغبار وغاب الفارسان عن الابصار ولم تزل مريم تحاوله وتحاوله وتسد عليه طرقه حتى كل من ألم الحرب وبطلت همته واضمحل عزمه وضعفت قوته فضربته بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ثم ان مريم جالت فى حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وطلبت البراز وسالت الانجاز وقالت هل من مقاتل هل من مناجز لا يبرزلى اليوم كسلان ولا عاجز لا يبرزلى الا ابطال أعداء الدين لاسقيهم كاس العذاب المهين يا عبدة الاوثان وذوى الكفر والطغيان هذا يوم تبيض فيه وجوه أهل الايمان وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن فلما رأى الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه وشق أثوابه وقال آه من فرقة الانسان أحبابه وبعد ذلك صاح على ولده الاوسط وقال يابرطوس ياملقب بخرء السوس ابرز ياولدى بسرعة الى قتال أختك مريم وخذ منها ثار أخيك برطوط وائتنى بها أسيرة ذليلة حقيرة فقال له ياأبت السمع والطاعة ثم انه برز لاخته مريم وحمل عليها فلاقته وحملت عليه وتقدمت بكليتها اليه وتقاتلت هى واياه قتالا شديدا أشد من القتال الاول فرأى أخوها الثانى نفسه عاجزا عن قتالها من عظم ما نظر من قوة شجاعتها وشدة نزالها فاراد الفرار والهرب فلم يمكنه ذلك من عظم باسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولاصقته وضايقته ثم ضربته بالسيف على رقبته فخرج يلمع من لبته وألحقته باخيه وبعد ذلك جالت فى حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وقالت أين الفرسان والشجعان أين الوزير الاعور الاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك صاح أبوها بقلب جريح وطرف من الدمع قريح وقال انها قتلت ولدى الاوسط وحق المسيح ثم انه صاح على ولده الصغير وقال له يافتيان * ياملقب بسلح الصبيان

اخرج باولدى الى قتال أختك وخذ منها ثار أخويك وصادمها امالك أو عليك وان ظفرت بها فاقتلها أقبح قتله ومثل بها أقبح مثله فعند ذلك برز لها أخوها الصغير وحمل عليها فلاقته بهمتها وبراعتها وحملت عليه بحسن صناعتها وقوة شجاعتها ومعرفتها بانواع ملاعب الحرب وفروسيتها وقالت له يا عدو الله وعدو المسلمين لالحقنك باخويك الطاغين الباغين الى النار وبئس مثوى الكافرين ثم انها جذبت سيفها من غمده وضربته فقطعت عنقه وذراعيه وقد ألحقته باخويه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأى البطارقة والفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا أشجع أهل زمانهم وقع فى قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة ونكسوا رؤسهم الى الارض وأيقنوا بالهلاك والدمار والذل والبوار وأحرقت قلوبهم من الغيظ بلهيب النار فولوا الادبار وركنوا الى الفرار فلما نظر الملك الى أولاده وقد قتلوا والى عساكره وقد انهزموا أخذته الحيرة والانبهار واحترق قلبه بلهيب النار وقال فى نفسه ان السيدة مريم قد استقلت بنا وان خاطرت بنفسى وبرزت اليها وحدى ربما غلبت على وقهرتنى فتقتلنى أشنع قتله وتمثل بى اقبح مثله كما قتلت اخوتها لانها لم يبق لها فينا رجاء ولا لنا فى رجوعها طمع والراى السديد ان احفظ حرمتى وارجع الى مدينتى واقعد على تخت مملكتى لئلا يذهب من يدى وابقى فاقدا له كما فقدت اولادى الذين كانوا ساعدى وعضدى ثم ان الملك ارخى عنان فرسه ورجع الى مدينته وحل مملكته فلما استقر فى قصره انطلقت فى قلبه النار من اجل قتل اولاده الثلاثة وانهزام عسكره وهتك حرمته فما استقر نصف ساعة حتى طلب ارباب دولته وكبراء مملكته وشكا اليهم فعل ابنته مريم معه من قتلها اخوتها وهم أولاده الثلاثة وما لاقاه من القهر والحزن واستشارهم فاشار وا عليه كلهم أن يكتب كتابا الى خليفة الله فى أرضه أمير المؤمنين هرون الرشيد ويعلمه بهذه القضية فكتب الى الرشيد مكتوبا مضمونه بعد السلام على أمير المؤمنين ان لنا بنتا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسير من أسراء المسلمين اسمه نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصرى وأخذها ليلا وخرج بها الى

ناحية بلاده وأنا أسال فضل مولانا أمير المؤمنين أن يكتب الى سائر بلاد المسلمين بتحصيلها وارسالها الينا مع رسول أمين من خدم حضرة أمير المؤمنين ومن جملة مضمون ذلك الكتاب اننا نجعل لكم فى نظير مساعدتكم لنا على هذا الامر نصف مدينة رومة الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل اليكم خراجها وبعد أن كتب الكتاب برأى أهل مملكته وكبراء دولته طواه ودعا بوزيره الذى جعله وزيرا مكان الوزير الاعور وختمه له هو وأكابر دولته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم فيه ثم قال لوزيره ان أتيت بها فلك عندى أقطاع أميرين وأخلع عليك خلعة بطرازين ثم ناوله الكتاب وأمره أن يسافر الى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب الى أمير المؤمنين من يده الى يده فسافر الوزير بالمكتوب وسار يقطع الاودية والقفار حتى وصل الى مدينة بغداد فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقروا استراح ثم سال عن قصر أمير المؤمنين هرون الرشيد فدلوه عليه فلما وصل اليه طلب أذنا من أمير المؤمنين فى الدخول عليه فاذن له فى ذلك فدخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب الذى من ملك الافرنجة وصحبته من الهدايا والتحف النفيسة العجيبة ما يليق بامير المؤمنين فلما فتح الخليفة المكتوب وقرأه وفهم مضمونه أمر وزراءه من وقته أن يكتبوا المكاتيب الى سائر بلاد المسلمين ففعلوا ذلك وبينوا فى المكاتيب صفة مريم وصفة نور الدين وأنهما هاربان فكل من وجدهما فليقبض عليهما ويرسلهما الى أمير المؤمنين وحذروهم من أن يعطوا فى ذلك أمهالا أو اهمالا أو غفلة ثم ختمت الكتب وأرسلت مع السعاة الى العمال فبادروا فى امتثال الامر وساروا يفتشون فى سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك واتباعهم وأما ما كان من أمر نور الدين المصرى ومريم الزنارية بنت ملك افرنجة فانهما ركبا بعد انهزام الملك وعساكره وسارا الى بلاد الشام وقد ستر عليهما الستار فوصلا الى مدينة دمشق وكانت الطلائع التى أرسلها الخليفة قد سبقتهما الى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه مامور بالقبض عليهما متى وجدهما ليحضرهما بين يدى الخليفة فلما كان يوم دخولهما الى دمشق أقبل عليهما الجواسيس فسالوهما عن اسميهما فاخبراهم بالصحيح وقصا عليهم قصتهما

وجميع ما جرى عليهما فعرفوهما وأخذوهما وساروا بهما الى أمير دمشق فارسلهما الى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام فلما وصلوا اليها استاذنوا فى الدخول على أمير المؤمنين هرون الرشيد فاذن لهم فلما دخلوا عليه قبلوا الارض بين يديه وقالوا له يا امير المؤمنين ان هذه مريم الزنارية بنت ملك افرنجة وهذا نور الدين المصرى الاسير الذى أفسدها على أبيها وسرقها من بلادها وهرب بها الى دمشق وجدناهما وقت دخولهما دمشق وسالناهما عن أسمائهما فاجابونا بالصحيح فعند ذلك أتينا بهما وأحضرناهما بين يديك فنظر الخليفة الى مريم فرآها رشيقة القوام فصيحة الكلام مليحة أهل زمانها فريدة عصرها وأوانها حلوة اللسان ثابتة الجنان فلما وصلت اليه قبلت الارض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم وزوال البؤس والنقم فاعجب الخليفة حسن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها فقال لها هل أنت مريم الزنارية بنت ملك افرنجة قالت نعم يا أمير المؤمنين وامام الموحدين وحامى حومة الدين وابن عم سيد المرسلين فعند ذلك التفت الخليفة فرأى عليا نور الدين المصرى شابا مليحا حسن الشكل كانه البدر المنير فى ليلة تمامه فقال له الخليفة هل أنت على نور الدين الاسير ابن التاجر تاج الدين المصرى قال نعم يا أمير المؤمنين وعمدة القاصدين فقال الخليفة كيف أخذت هذه الصبية من مملكة أبيها وهربت بها فصار نور الدين يحدث الخليفة بجميع ما جرى له من أول الامر الى آخره فلما فرغ من حديثه تعجب الخليفة من ذلك غاية العجب وأخذه من العجب فرط الطرب وقال ما أكثر ما تقاسيه الرجال ثم انه التفت الى السيدة مريم وقال لها يا مريم اعلمى أن والدك ملك افرنجة قد كاتبنا فى شانك فما تقولين قالت يا خليفة الله فى أرضه والقائم بسنة نبيه وفرضه خلد الله عليك النعم وأجارك من البؤس والنقم انى قد دخلت فى دين الاسلام لانه هو الدين القويم الصحيح وتركت ملة الكفرة الذين يكذبون على المسيح وقد صرت مؤمنة بالله الكريم ومصدقة بما جاء به رسوله الرحيم أعبد الله سبحانه وتعالى أوحده واسجد خاضعة اليه وأمجده وأنا قائلة بين يدى الخليفة اشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فهل فى وسعك يا امير المؤمنين أن تقبل

كتاب ملك المجدين وترسلني الى بلاد الكافرين الذين يشركون بالملك العلام
ويعظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويعتقدون ألوهية عيسى وهو مخلوق بين
الانام فان فعلت بي ذلك يا خليفة الله أتعلق باذيالك يوم العرض على الله وأشكوك
الى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله
بقلب سليم فقال أمير المؤمنين يا مريم معاذ الله ان أفعل ذلك ابدا كيف ارد امراة
مسلمة موحدة بالله ومصدقة برسوله الى ما نهى الله ورسوله عنه فقالت مريم اشهد
ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فقال لها الخليفة يا مريم بارك الله فيك وزادك
هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب
وهو انني لا أفرط فيك أبدا ولو بذل لي من أجلك ملء الارض جواهر اوذهبا فطيبي
نفسا وقري عينا وانشرحي صدرا ولا يكن خاطرك الا طيبا فهل رضيت ان يكون
هذا الشاب علي المصري لك بعلا وتكوني انت له اهلا فقالت يا امير المؤمنين كيف
لا ارضى ان يكون لي بعلا وقد اشتراني بماله واحسن الي غاية الاحسان ومن تمام
احسانه انه خاطر بروحه من اجلي مرات عديدة فزوجها به الخليفة هارون الرشيد
وامهرها من عنده بعد ان أحضر القاضي والشهود واكابر دولته وعقد عليها النور
الدين وكان يوما مشهودا ثم بعد ذلك التفت امير المؤمنين الى وزير ملك افرنجة وكان
حاضرا في تلك الساعة وقال له هل سمعت كلامها كيف ارسلها الى ابيها الكافر
الطاغي وهي مسلمة وربما اساءها واغلظ عليها خصوصا وقد قتلت اولاده فاتحمل
أنا ذنبها يوم القيامة وقد قال الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا
فارجع الى ملكك وقل له ارجع عن هذا الامر ولا تطمع فيه وكان ذلك الوزير
أحمق فقال للخليفة يا امير المؤمنين وحق المسيح والدين الصحيح لا يمكنني الرجوع
بدون مريم ولو كانت مسلمة لاني لو رجعت الى ابيها بدونها قتلني فقال الخليفة خذوا
هذا الملعون واقتلوه وأنشد هذا البيت

هذا جزاء من عصى * من فوقه وعصانيه

ثم امر بضرب عنق ذلك الوزير فقالت السيدة مريم يا امير المؤمنين لا تنجس سيفك
بدم هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربته به فاطاحت رأسه عن جثته فذهب الى

دار البوار وبئس القرار فتعجب الخليفة من صلابة ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على نور الدين خلعة سنية وأفرد لهما مكانا فى قصره ورتب لهما المرتبات مما يحتاجانه واجراين ينقل اليهما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاوانى النفيسة واقاما فى بغداد مدة من الزمان وهما فى غاية اللذة والسرور وبعد ذلك اشتاق نور الدين الى امه وابيه فعرض الامر على الخليفة وطلب منه اذنا فى التوجه الى بلاده لزيارة والديه واقاربه ودعا بمريم واحضرها بين يديه فاجازه بالتوجه وزوده من الهدايا والتحف المثمنة واوصاهما ببعضهما ثم امر بالمكاتيب الى امراء مصر المحروسة وعلمائها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو واهله وعياله واكرمهم غاية الاكرام فلما وصلت الاخبار الى مصر المحروسة فرح التاجر تاج الدين بعود ولده نور الدين وكذلك امه فرحت بذلك غاية الفرح وخرج لملاقاته الكبراء من الامراء وارباب الدولة والرؤساء على حسب وصية الخليفة فلاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا للعالمين اجتمع فيه المحب والمحبوب واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل لهم الضيافات فى كل يوم على كل واحد من الامراء والاحباب الظرفاء وفرحوا بهم الفرح الزائد وأكرموهم الاكرام المتصاعد ولما اجتمع نور الدين بوالديه فرحا به غاية الفرح وزال عنهما الهم والترح وكذلك فرحا بالسيدة مريم وأكرماها غاية الاكرام ووصلت اليهم الهدايا والتحف من سائر الامراء والتجار الفخام وصاروا كل يوم فى انشراح جديد وسرور أعظم من سرور العيد وأقاموا فى فرح ولذات ونعم جزيلة مطربات وأكل وشرب وسرور مدة من الزمان الى ان أتاهم هاذم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده مقاليد الملك والملكوت

بحمد الله قد تم طبع هذه القصة العجيبة البهية المشتملة على ما جرى لعلى نور الدين المصرى مع جاريته مريم الزنارية وذلك بالمطبعة العلمية الكائنة أمام الازهر الانور بشارع الصنادقية ادارة المفتقر الى عفو مولاه المبدى عمر هاشم الكتبى فى شهر جمادى الآخر سنة ١٣١٢ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيه